بسم الله الرحمن الرحيم

المغرب الأقصى في القرن الحادي عشر الهجري (1)

بقلم الدكتور الشيخ :
عبد الحميد محمد المنيف

انتحـال الصـلاح (2) :

ولعل هذه الظاهرة التي تفشت بين الناس مما سهل على كثير من المشعوذين والدجاجلـة الأقدام على تغليط القوم والدخول عليهم من هذا الباب حتى يسهل عليهم جرهم لحضيرة الإعتقاد بهم والتسليم بصلاحهم ، خصوصا وأن الظروف العامة بالبلاد — في القرن الحادي عشر الهجري — تساعـد على ذلك وتدعو له كما سبق أن بيناه . ومن هنا لا نستغرب ما ذكره اليوسي وقد كان هو وأمير سجلماسة من بين ضحاياه .

فلقد ذكر في كتابه المحاضرات أنه قد هزت كافة الناس ، عامتهم وخاصتهم ، الأخبار عن ظهـور رجل في المدينـة يقال إنه من الأولياء . ثم بعد مدة تبين لديهم أنه رجل مصاب ، وأنه كان يشتغل باستخدام الجان . يقول اليوسي في الموضوع : « ومما وقع بسجلمـاسة قريبا من هذه القصة أنه شاع في البلـد ذات ليلـة أنه قد ظهر رجل في المـدينة الخالية . فأصبح الناس يهرولون إليه أفواجا . وخرجنا مع الناس . فقائل يقول : ولي من أولياء الله . وآخر يقـول : صاحب الوقت . فلما بلغنا المدينة وجدنا الناس قد اجتمعوا من كل ناحية على ذلك الرجل . حتى أن أمير البلد — وهو محمد

1) هذا هو الجزء الثانى من البحث وقد نشر الاول فى العدد السابع من النشرة العلمية للكلية الزيتونية 1405 هـ / 1984 م .

(2) تابع للحياة الاجتماعية فى الجزء الاول من البحث .

(بالفتح) بن الشريف ــ خرج في موكبه حتى راه . فلما كثر الناس واشتد الزحام عليه وتعذرت رؤيته فدخل في قبة هنالك في المقابر . فأخرج كفه من طاق في القبة . فجعل الناس يقبلون الكف وينصرفون . وكان كل من قبل الكف اكتفى ورأى أنه قضى الحاجة فقبلناه وانصرفنا . ثم بعد أيام سمعنا به أنه ذهب إلى ناحية الغرب وأنه سقط في بئر هنالك ومات . فظهر أنه رجل مصاب . وكان يشتغل باستخدام الجان ونحو ذلك فهلك » (1) . ومثل هذا ما شاهده اليوسي نفسه في جبل من جبال « هسكورة » أعوام الستين والألف (2) . ومن نظائر هذه الوقائع وشبيهاتها ما حصل من يهودى ظهر بسجلماسة أيضا واشتهر باسم الصلاح . فوقع الإقبال عليه حتى كاد يفسد على الناس دينهم بالتحريف والتشويه . ثم كشف أمره وارتحل عن تلك الديار بعد أن تبين في النهاية أنه من قبيل المزورين والمبطلين (3) .

هذه بعض الملامح لمظاهر اجتماعية في هذه الفترة تساعدنا على تصور نفر كثير ــ إن لم نقل جل القوم ــ وهو يترامى في تهالك على من يدعي أو يظهر عليه بعض الانتساب إلى الدين ، مقبلا عليه بكلياته دونما تحفظ وحيطة أو حذر ، حتى أو قعه هذا الإقبال في حوادث أضعفت من شأنه وقللت من وزنه وأخذت بيد الدارس لتقف به أمام ثغرات الحركة الإصلاحية انئذ وأوجه ضعفها . تلك التي ترجع ــ فيما يظهر ــ إلى اكتفائها في معالجتها للمجتمع ، توعية وإرشادا وتربية ، بالتربية الفردية الخاصة دون التربية العامة القائمة على التوجه بها إلى المجالس العامة تغشى أسواقهم وملتقياتهم وتسعى وراءهم هنا وهناك . وهو مسلك من الإتصال في التربية لا يتم في نظرنا نهوض بدون اعتماده ؛ إذ به تعم التوعية التي تنتهي إلى إنارة العقول وتسليحها بسلاح النفاذ والعمق حتى تتمكن من تمييز الحق فيتبع ، ثم يتخذ مطية للنهوض والوصول للكشف عن الباطل فينبذ ويطرح . وبذلك تظهر معالم الطريق ويكشف عن أمر العابثين المفسدين .

(1) المحاضرات : ص 38 .
(2) المحاضرات : ص 39 .
(3) نفس المصدر السابق .

انتشار الزوايا :

ومن الظواهر الإجتماعية التي عرفت لدى المجتمع المغربي واشتهر بها كما اشتهرت به ظاهرة قيام الزوايا والسعي للانتساب إليها حتى لا تكاد تجد من ليس له انتساب أو ارتباط بزاوية ما .

ولعل ما قد تولد عند العامة والخاصة من شعور باطني بما للأولياء من مكانة وقرب ، ومن خصوصيات قد أورث في الناس هذا الإرتباط والتقرب إليهم . فلقد سبق أن أبا علي اليوسي أشار إلى إمكانية وجود وجه من خصوصية التصرف للولي بعد موته . وهذا المعنى إذا ما استقر في الأذهان ، فزرع في أصحابها ما يشبه الإعتقاد في أن الولي يضر وينفع حيا وميتا ، نتجت عنه حتما الرغبة الكبرى في حب الانتساب إليه وإلى أمثاله من الأولياء ، كل على حسب ما اشتهر به من كرامات وخوارق عادات ، أو من استقامة في السلوك والعبادة ، يسارع الناس إلى ذلك ليتم لهم التقرب ، وليأمنوا على أنفسهم شر الغوائل والزيغ والإنحراف باعتبار أن هذا الإنتساب يساعدهم على الوصول إلى الفوز في الدارين . فينجم عن هذا كله الإسراع والتسابق إلى حضور المجالس للتبرك والعبادة . وهو ما كان قد حصل بالفعل عند الكثير من الناس في ذلك العصر .

ومن هنا أصبح من الضرورات الأكيدة حفظ الأوراد والمواظبة على الأذكار والأحزاب حسبما يقرره شيوخ الطرق وأرباب الزوايا . وتبعا لذلك ، يكون الحرص على المواظبة على حضور اللقاءات والإجتماعات التي تعقد في المناسبات وفي الأوقات المعينة للذكر والتسبيح والتعبد بما يحدده شيخ تلك الزاوية من أدعية وأحزاب وغيرها . ما دام كل ذلك يضمن الرضى وخير الأمل .

وهكذا نشأت حلقات تعقد للأمداح والتغني بها . حتى أصبحت بدع السماع والتواجد والتغني وما يتبعه من شطحات ورقص — عند كثير من الناس وحتى عند بعض الخاصة — أمرا مقرونا بالأذكار ينتظر أصحابه الجزاء عليه .

كل هذا كان منتشرا في هذا القرن . يسعى إليه المريدون ويسأل عنه المستفتون الذين ينتظرون من العلماء فيه فتاوى غلب على الكثير منها طابع التسامح والقبول قولا وعملا لا طابع الإنكار والنكير على أصحابها . ولعل هذا قد يفسر كثرة المواسم التي يقيمها الناس في الزوايا . ولربما يكون بعض ما يقام الآن من آثار تلك التي كانت في الماضي .

فإذا أضفنا إلى هذا ما أصبحت عليه الزوايا — من كونها مزارات يؤمها الناس فيجدون فيها إطعام الطعام (1) ، وتوفير المرافق الضرورية بدون تعب ولا مشقة ، وهو من الأمور المحببة إلى النفس طبعا ، تلك التي تميل عادة إلى الدعة والبعد عن المشقات والكلف ، خصوصا إذا ما حققت مع ذلك السعادة والبركات ، ونالت درجة القبول والفوز بالأجر والرضى — تبينا جوانب عديدة أخرى للعوامل التي تشد الناس بالزوايا وتؤلف منهم عناصر يتحمسون إليها ، ويدعون الجماعات للانضمام إليها واللحاق بحلقاتها والدخول في زمرة أصحابها . فتوزعت الزوايا عموم المغرب . ووجدت في الناس العطف والميل . واشتدت شوكتها . وقوي التحام الناس بها حتى كانت أحزابا أو شبه أحزاب ، لها العصبية ، وبها التعلق ، وعليها المدافعة والمغالبة وإليها الإنتصار ، مما جعل اليوسي يشعر بخطورة هذا الأمر شعورا دفعه إلى تحريض المريدين والمنتسبين على أن لا يدفعهم حب مشائخهم إلى التعصب لهم والتقليل من شأن غيرهم ، ومما دعا أيضا السلفيين ورجال السنة في المغرب الأقصى إلى التصدي بالنكير والتشهير والتحذير من هذه الحركة ومن أبعادها وما قد تتسبب فيه من مضار تلحق بالمجتمع المغربي (2) .

والظاهر أن هذا الذي حدث من الصراع القائم بين رجال السنة من جهة ، وبين من يسمون عندهم بالمبتدعة — وهم أصحاب الطرق

---

(1) المحاضرات : ص 117 ؛ الزاوية الدلائية : ص 45 وما بعدها ؛ وانظر أيضا دوحة البستان ونزهة الاخوان : ص 334 — 335 .

(2) مجلة دعوة الحق : س 7 ، عدد 3 ، ص 20 — 28 .

والزوايا — من جهة أخرى ، قد ساعد في زيادة التفكك واتساع شقة الخلافات بين عناصر هذا الهيكل الإجتماعي المتداعي وفي تمزيق شمله . حتى كاد أن يأتي على ما أبقاه ذلك التعصب الذي كان سابقا له وموروثا عن الأجداد والذي ازداد تمكنا في ذلك العصر خصوصا في عاصمة الأدارسة فاس . أعني به التعصب للأنساب وما جر معه من التعصب إلى المدن والقرى . فكان أرضية لمرض مزمن ساعد على سرعة نموه واذكاء لهيبه وتمكنه هذا الذي لحق . وليس اللاحق بأضعف شأنا من السابق .

الطبقيــة :

فلقد سبق للتعصب للأنساب وما تبعه من التعصب للمدن والقرى ، الذي مازالت آثاره قائمة ومازالت تعبر عنه الأغاني الشعبية إلى اليوم في لهجة ساخرة وعبارة ناقدة هازئة (1) ، أن أثار في القديم السابق ما بقي قائما ومستفحلا في القديم اللاحق ، وفي القرن الحادي عشر بالذات ، من المشاكل والمناقشات الجانبية التي أثقلت كاهل البلاد المغربية بموجب ما تولد عنها من عنصرية وطبقية من جهة ، وما أحدثته من جدل وحوار ألهى الكثير من العلماء في محاولة للتخفيف من حدة مفعوله وبيان مفاسده وما يصحبه من أضرار وويلات وخصومات ما أغنى المجتمع عنها ، وما أبعدها عن الدين الإسلامي الذي ينتسبون إليه (2) .

ولعل حدة هذا التعصب هو الذي جعل اليوسي يتبرم مما ورد في رسالة المولى اسماعيل له حينما قال : « فأراك رجلا بربريا » (3) ، وجعله يفهمها على المعنى القائم فيما بين القوم آنئذ ، والذي مرده إلى التمييز العنصرى والصراع الطبقي الذي فشا فشوا خطيرا وترك في النفوس أثرا يتحكم في السلوك . فكان جواب الرجل على ذلك يكاد يكون منصرفا انصرافا كليا

---

(1) من ذلك مثلا الأغنية الشعبية المشهورة : « آنا سلاوى آنا رباطي » .

(2) مجلة دعوة الحق : س 7 ، عدد 3 ، ص 20 — 28 .

(3) رسالة اليوسي جوابا على رسالة المولى اسماعيل : ص 71 .

إلى ذلك المعنى بدون محاولة للانصراف عنه إلى غيره من مدلول لفظة بربري الذي قد يعود إلى معاني أخرى لا ترجع إلى النسب ، ولكنها ترجع إلى مدلول غيره أطلقت عليه هذه العبارة في كثير من المواطن والمناسبات . كل ذلك مما يدل دلالة قاطعة على تفشي هذا المرض الإجتماعي وتمكنه من النفوس ، وشيوعه شيوعا لا يسمح بصرف المقاصد عنه وتنزيه الغير عنه ، وعدم تبادره للأذهان بمجرد الإشارة إليه أو صدور ما يحتمله ويحتمل غيره من المخاطبات والتقاييد . فكان جواب اليوسي عن ذلك التحدي بما يشبه التحدي بقوله : « ... فان نسب الإنسان طينه ، وحسبه دينه . أنتم بنو آدم ، وآدم من تراب . إن أكرمكم عند الله أتقاكم » (1) .

ولعل هذا أيضا هو الذي جعله يفرد بحثا كاملا في كتابه المحاضرات للتعريف بنسبه ، ثم للتحدث عن النسب بصفة عامة (2) . أما ما كان قد تدرع بذكره من الدواعي التي دعته لذكر الأنساب والتي انصرف بها إلى أسباب علمية وأخرى قومية وقبلية فإنها في نظرنا ليست كل شيء ، وإنما هي – في جانب كبير منها – تغطية لحقيقة في نفسه ومعنى متمكن من الأوساط التي يعيش بين ظهرانيها والتي انتقل من موطنه وقرابته في الدلاء والأطلس إلى الإقامة فيها ، وهي مدينة فاس التي غرب إليها . خصوصا وقد كان تأليف هذا الكتاب في زمن لاحق لما أصابه من المتاعب التي انجرت له منذ أن حل بها واستقر فيها (3) . ومن أجل ذلك نجد الرجل – وهو يتحدث حديثه هذا – لا يقف عند النسب فحسب ، بل يتجاوزه إلى المقارنة العامة بين العرب والبربر بصفة شاملة ، ثم ما بين اللهجات واللغات البربرية وما فيها من أسرار من جهة ، واللغة العربية وما تضمنته من خصائص وميزات من جهة أخرى ، حتى انتهى إلى إبراز التشابه والتقارب فيما بين البربرية والعربية ، ثم إلى أن العربية لا تنفرد بما كان يتوهم هو

(1) نفس المصدر السابق ؛ والآية سورة الحجرات : 13 .
(2) المحاضرات : ص 10 – 28 .
(3) شرع اليوسي في تأليف كتابه المحاضرات سنة 1095 هـ ؛ المحاضرات : ص 37 .

وغيره من أنها تنفرد به وتتفوق . ثم هو بعد ذلك حاول بحذاقة ولباقة أن يثبت للبربرية قواعد لغوية شبيهة بتلك التي للعربية من قواعد وضوابط ، وأن استخلاص هذه القواعد يرجع أيضا إلى الاستقراء الذي اعتمده العرب كثيرا في ضبط قواعد لغتهم فكان من الممكن إذن أن يستفيد منه البربري في لغته كما استفاد منه العربي أيضا في لغته (1) .

التداوي بالمعتاد :

هذا ولقد عرف المغرب فيما عرف من الظواهر الإجتماعية ظاهرة أخرى ما أظن أنها من مستحدثات هذا العصر فقط ، إلا أنها كانت معروفة فيه بكثرة . تلك هي ظاهرة ما اشتهر من التداوي بالشيء المعتاد الذي نشأ عليه الإنسان أو عايشه في حياته اليومية من أطعمة وغيرها . فلقد تعرض إلى هذه الظاهرة أبو علي اليوسي في كتابه المحاضرات وأولاها عناية كبيرة حتى إنه أفردها بحديث طويل تناول جوانب منها تبرز أهميتها وأن لها أصلا في التاريخ ، مستعينا في ذلك بقصص عديدة تدور حولها محيلا شيئا مما يتعلق بها على كتاب المدخل لابن الحاج (2) . كما أنه أشار ، ضمن هذا الحديث ، إلى أن التداوي بالشيء الذي اعتاده الإنسان من طعام في حياته لا يدخل في معتقد الطبقات الشعبية فقط . فها هو السلطان رشيد العلوي يشير على اليوسي ذاته بالتداوي بما اعتاده في حياته ، وبأن يتخلى عن شراب الريحان الذي كان قد صنعه له الطبيب المعالج له بموجب ما اعتراه من إسهال أضناه . وها هو الطبيب الذي عالجه مرة أخرى غير الأولى — لما دخل مدينة فاس عام تسع وسبعين وألف وأصابه إسهال مفرط وطال به وأعيا ذلك الطبيب أمر علاجه — يلتجيء هو الآخر إلى هذا الدواء ويأمر عيال الشيخ أن يحضروا له ما كان اعتاده في بلده من طعام (3) . ثم هاهي الحلقات التي يقيمها المداحون في رحبة مراكش والذين يشتغلون بالأمور المضحكة

---

(1) المحاضرات : ص 141 .
(2) المدخل لابن الحاج : ج 4 ، ص 137 وما بعدها .
(3) المحاضرات : ص 66 — 67 .

وغيرها يتعرضون إلى قريب من هذا الموضوع بطريقة هزلية لا تخلو من فكاهة وضحك قصدا للتسلية وغيرها (1) ، غير أنها على كل حال تعبير عن أثر من آثار ما يعتمل في الباطن مما تعوده الناس في تربيتهم وتكوينهم . ومثل ذلك يظهر عادة في سلوك أصحابه وتصرفهم وفي مختلف أحوالهم وظروفهم جدا وهزلا .

وبهذه المناسبة ، ونحن قد ذكرنا هذه الحلقات التي يُحلّقها المداحون وغيرهم ، والتي كانت قد استوقفت اليوسي في رحبة مراكش كما جاء في كتابه المحاضرات (2) بدافع حب الاطلاع أو الترويح على النفس ، والتي نقل لنا عنها طرائف تمس هذا الموضوع ، لا يحسن بنا أن لا نثير الانتباه إلى ما يوحي به هذا الذي تعرض إليه الرجل مما يتعلق بالظواهر الإجتماعية في ذلك العصر . فنحن بهذه الإلتفاته قد نستفيد أمرين هامين ثنين :

أحدهما ما تقدمت الإشارة إليه حول الاعتقاد فيما ذكره اليوسي من التداوى بالأشياء المعتادة لدى الناس والتي قد يكون أو لا يكون لها أساس في المجال العلمي ، وأن هذا الإعتقاد هو سار لدى الطبقات الشعبية وغيرها كما تقدم في هذا المجال وفيما هو قريب منه مما يتعلق بأهم الدواعي التي بها يكون إقبال بعض الناس على أصناف من الأطعمة قد لا يستطيبها الآخرون .

وثاني الأمرين هو أمر تحليق الحلقات الذي نجده إلى الآن شائعا في البلدان المغربية من أمثال مراكش والدار البيضاء والرباط وغيرها من المدن الكبيرة أو الصغيرة ، وأن هذا الذي نشاهده حتى الآن وفي المدة الأخيرة ونحن بالرباط إنما هو امتداد لذلك الماضي الذي انتشر فيه نشاط

(1) المحاضرات : ص 68 .
(2) نفس المصدر السابق .

المداحين وغيرهم من المشعوذين والعاطلين الذين اتخذوا من الغفلة عنهم وعدم الحذر منهم خير ظرف للاندساس في صفوف الصالحين والمشائخ الفضلاء ، فأفسدوا عليهم الأمر وحاق المكر بالجميع فيما أتت به الأيام من بعـد .

وفي موضع آخر من كتاب المحاضرات يتعرض اليوسي إلى ظاهرة اجتماعية لا نستطيع أن نتأكد من مدى انتشارها أو عدم انتشارها . فهل هي على صعيد المجتمع المغربي عمـوما ، أم على الصعيد الخاص الذي يتعلق بقوم اليوسي دون سواهم ؟ تلك الظاهرة هي ظاهرة التطير التي قد تؤدي في بعض الأحيان إلى التمييز العنصري ظاهرا . ذلك ما جاء ذكره في حادثة الحال التي جرت له والتي نقلها لنا اليوسي في كتابه هذا . وهي في ذاتها حادثة ظريفـة لولا بعض عناصرها . إنها نتجت عن تعامل الامام أبي علي مع رجل أسود وقد وقعت بعض أطوارها بمحضر رجل من قومه : فجرت بينه وبينه ما كشف النقاب على هذا الذي كان سائدا لدى قومه من التطير من كل ما هو أسود ، وكان من الرجل أن عبر عن هذا الأسود الذي تعامل معه اليوسي بأنه من الغربـان . ثم صرح صاحب المحاضرات، بعد ذلك الذي جرى بينـه وبين الرجل من قومه لومـا وانـكارا، صرح بأن أفراد عشيرته « كانوا يفرون من السواد فـلا يلبسون ثوبا أسود ولا يركبون فرسا أدهم وهـكذا » (1) .

الجـدل العقـائدي :

ومن الطريف حقا ما نقله الإمام اليوسي عن اشتغال العامة بما هو من شأن الخاصة ومتعلقاتها اشتغالا غريبا ألهى الناس عن المهمات متحولا بهم إلى المشقة والوقوع بهم في الفتنة والبلوى . ذلك أن صاحب المحاضرات يتحدث لنا في كتابه هذا عن اشتغال كثير من الناس حتى العوام منهم

---

(1) المحـاضـرات : ص 80 .

الذين لا يشتمون للعلم رائحة ، فيرددون بأفواههم ما تناقلته أسماعهم واستقر في مخيلتهم أنه من الأمور الدينية التي لا يستقيم إيمان بدونه ولو لم يكن منها . فيتحدث لنا عن اشتغال هؤلاء بمسائل معقدة من أصول الدين مما هو بعيد عن أذهانهم وغريب عن عقولهم ، مهتمين بالأمور الجانبية في تلك القضايا والتي لا فائدة لهم تنتظر من وراء خوضهم فيها إن لم تتولدت عنها أضرار وشبه قد تفسد عليهم دينهم .

ولعل الذي جر الناس إلى ذلك شبه الفراغ الذي تحياه مجموعة لا يستهان بها من طلبة العلم في ذلك العصر من جراء سوء فهمهم للمشاكل العلمية وما يراد منها ، حتى أنهم أحدثوا فتنا بالغة أثارتها المماحكات الكلامية والمناقشات اللفظية التي كانوا يديرونها حول عقيدة الناس وماذا يلزم على العامة معرفته من الضروريات التي لا بد منها في نظرهم وما لا يلزم لتسلم لهم تلك العقيدة ويكتمل لهم الإيمان صحيحا لا شائبة فيه . فنجمت عن ذلك فتن ومشاكل أقلقت راحة الخاصة وكدرت الحياة على العامة .

وهذه الظاهرة يبدو — من خلال ما نقله لنا الكتاب — أنها أمست عامة في بعض الجهات على الأقل بعد أن ابتدأت خاصة وفي الأوساط التي تنتسب إلى المجالس العلمية . ذلك أن هذا الجدل المتحدث عنه ، والنقاش المشار إليه ، قد قام بادىء ذي بدء بين مجموعة من العلماء قديما وفي عصر الهبطي بالذات (1) . ثم نبش عليه البعض من الطلبة فقام فيما بينهم أولا ثم فيما بينهم وبين العامة ثانيا .

فلقد اشتغل بعض العلماء طويلا بقضية العلم النبوي ، وهل أن النبي صلى الله عليه وسلم قد اطلع على كل شيء قبل أن يقبض أم لا ؟ (2) .

---

(1) هو أبو محمد عبد الله بن محمد الهبطي الطنجي المتوفي سنة 963 هـ ؛ النبوغ المغربي : ج 1 ، ص 251 .

(2) الدر المنضد الفاخر : ورقة (218 — أ) .

كما اشتغل الطلبة بما أثار فتنة بينهم بسجلماسة وفتنة أخرى بمراكش . وذلك باختلافهم في معنى كلمة الاخلاص (1) . وهل المنفي المستثنى منه هو المعبود بحق سبحانه وتعالى أم هو غيره مما سواه ؟ (2) . ثم اشتغل العوام تبعا لذلك بما أثاره الطلبة فيما بينهم من القدح في عقيدة من لم يشتغل بالتوحيد على النمط الذي يقرره الطلبة للعوام باعتبار أن تارك الاشتغال بذلك كافر ، وأن من لم يعرف كلمة الاخلاص على حقيقتها ولم يعرف مصب النفي فيها على أي يكون فهو كافر أيضا . كما أشاعوا أن عوام المسلمين لا تؤكل ذبائحهم ولا يناكحون . وذلك مخافة أن لا يكونوا عارفين بالتوحيد على النمط المطلوب السابق الذكر . حتى أن البعض منهم كان يرفض أكل اللحوم المعروضة عليه خشية أن يكون الجزار الذي ذبح الذبيحة لا يعرف التوحيد على المنهج المطلوب أيضا (3) .

واستبدت الفكرة بكثير من الأوساط ولم تهدأ بسهولة رغم المحاولات التي قام بها العلماء النابهون من أمثال اليوسي والشيخ محمد بن ناصر وغيرهما . بل إن هؤلاء العلماء أنفسهم الذين حاولوا إفهام العامة وإقناع أولائك الطلبة الذين تسببوا في إثارة هذه الفتنة عن بلادة وجهل أو عن كيد ومكر ، بوجوب إقلاعهم عن هذا الذي صنعوا كادت أن تلتهمهم نار هذه الفتنة أو على الأقل أن تؤذيهم إذاية كبرى (4) .

وما كان كل هذا ليحصل لولا الإضطراب والبلبلة والفوضى التي عمت البلاد في تلك الحقبة من الزمن . فاشتغل الناس بما يفهمون وبما لا يفهمون . واختلط على العوام أمر معاشهم فأصبحوا في غمرة من الجهل دفعتهم إلى القلق المستمر في الحياة . حتى أنهم لا يميزون بين ما تفرضه عليهم هذه الحياة من متطلبات دنيوية وواجبات أخروية وما هو بعيد

---

(1) وهي شهادة أن « لا إلاه إلا الله » .
(2) المحاضرات : ص 76 .
(3) نفس المصدر : ص 76 وما بعدها .
(4) المحاضرات : ص 77 وما بعدها .

عن مشاغلهم بل وما هو منهي عنه معالجة واهتماما فيتركونه وينصرفون عنه إلى ما تستقيم لهم بموجبه دنياهم ، وتنبعث فيهم طمأنينة واطمئنان على الحياتين ، العاجلة منها والآجلة .

الأخلاق والسلوك :

ولئن كانت الحركة الدينية في البلاد المغربية آنئذ قائمة على قدم وساق جادة في التربية والتوجيه والذكر والوعظ والإرشاد ، فإنها لم تستطع أن تؤثر تأثيرها المطلوب على الأخلاق والسلوك عند العامة من جهة ، وعند رجال الحكم من جهة أخرى . فلقد نقل إلينا اليوسي في كتابه المحاضرات وفي مواطن عديدة منه ما يدل على انتشار هذا الفساد على اختلاف مظاهره في ذلك العصر بالذات . فعم طبقة الحكام وأوساط العامة ، في غير ما مكان من البلاد ، كما شمل سلوك بعض العلماء وغيرهم (1) .

أما فيما يخص العامة فإن اليوسي عندما تعرض لظهور أمر أحمد ابن عبد الله بن أبي محلى الذي تولى الإمارة بعض الزمن في بلاد اليوسي (2) تحدث لنا عن علاقة هذا الرجل بالشيخ أبي بكر الدلائي ومعاشرته له ، وما كان بينهما من تقارب في السلوك والإنتساب ، وما كان عليه من الإستقامة والدعوة إليها ، إلى أن عرض أولهما على ثانيهما ذات ليلة أن يترافقا في غدها للخروج إلى الناس ، ودعوتهم إلى الخير وإلى طريق الهداية مما يتصل بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . غير أن الدلائي أعرض عن ذلك ولم يساعف صاحبه لما دعاه إليه . فحاول ابن أبي محلى أن يقوم بالأمر وحده . إلا أنه قد أتعبته هذه المهمة غاية التعب ورجع إلى صاحبه في المساء منهوك القوى ومضيعا للفرائض وواقعا فيما هو أعظم مما اتجه إلى الناس من أجله ، باخلاله بواجباته الدينية عبادة وذكرا ، وبتخلفه عن

---

(1) المحاضرات : ص 106 .

(2) قام ابن أبي محلى في سنة 1019 هـ . ومات في اثنين وعشرين بعدها ؛ انظر المحاضرات : ص 91 .

داء المفروضة في وقتها ولم ينهض بشيء . وهنا يسجل لنا اليوسي في غير ما بخل ولا تردد ويصرح بما كشف به الحالة التي كان عليها البلد من انحراف فيقول : « وكان البلد إذ ذاك قد كثرت فيه المناكر وشاعت » (1) . ثم هو لا يقف عند هذا فحسب ، بل يتعرض إلى بيان السبب الذي من أحله تخلف الدلائي بموجبه عن القيام بواجبه الذي شعر به صديقه وأحجم هو عنه قائلا : « فلم يساعفه لما رأى من تعذر ذلك لفساد الوقت وتفاقم الشر » (2) .

وها هو أيضا لا يهمل الإشارة إلى هذا الفساد الذي استشرى أمره في جهات مختلفة من البلاد عند بعض أحاديثه في الكتاب ، وهو يتوقف أمام معنى ورد على لسان أحد الطلبة وقد لامه البعض من الأصحاب على بقائه مقيما في إحدى القرى المغربية التي عمها الفساد حتى اشتهرت به وأصبحت مضرب الأمثال بمقتضاه . فما كان من ذلك الطالب إلا أن حمد الله تعالى على أن حببها إلى قلبه ، وقد كانت تلك الإقامة قضاء من الله بها عليه ولم يكن من كسبه واختباره ، ولا مفر له من قضائه . ويستهل اليوسي هذا الحديث بما يعبر به عن هذا الفساد واستفحاله في ذلك المكان فيقول : « كان بعض الطلبة من أصحابنا في قرية ، وكانت القرية قرية سوء ، وأهلها كذلك ... » (3) .

أما فساد الحكام فقد اشتكى منه في غير ما مكان من رسائله (4) ، علاوة على ما جاء به إجمالا لا تفصيلا في كتابه المحاضرات من أمثال قوله : « ... أما الزمان فلا تسأل عنه . وقد مر في الحديث : صنفان إذا صلحا صلح الناس وإذا فسدا فسد الناس : الأمراء والعلماء . وقد فسدا معا . وإلى الله المشتكى . وكان الأمر يصلح بأئمة العدل وفقه الفقهاء وأدب الصوفية وقد فسد هؤلاء الثلاثة بالجور والمداهنة والبدعة . ففسد الدين بهم

---

(1) المحاضرات : ص 90 .
(2) نفس المصدر السابق .
(3) المحاضرات : ص 121 .
(4) مثلا : براءة اليوسي للمولى اسماعيل : ص 23 — 27 .

أولا والدنيا ثانيا » (1) . كما تعرض إلى ذلك في موضع آخر من الكتاب وهو يعقب على حادثة ذلك اليهودي الذي ظهر بسجلماسة وتظاهر بمظهر الرجل الصالح ، فغرر بالناس هناك ملبسا عليهم دينهم . حتى افتضح أمره ، فقال في خاتمة حديثه هذا : « ... فالحذر مطلوب . ولا سيما فيما نحن فيه من آخر الزمان الذي استولى فيه الفساد على الصلاح والهوى على الحق ، والبدعة على السنة إلا من خصه الله . وقليل ما هم » (2) . وإذا كان حديث اليوسي في هذا الموضوع مجملا لا تفصيل فيه ، فإن ما ورد في عديد من المصادر التي تحدث لنا عن هذا الزمان من الأحداث والوقائع يبين لنا ما ورد هنا مجملا (3) . فإذا أضفنا إلى هاتيك المصادر ما جاء فيما خلفه اليوسي من رسائل توجه بالبعض منها إلى السلطان اسماعيل العلوي ، فعدد له فيها ما جدّ أو تفاقم استفحالا من فساد الأعوان ورجال السلطة ومن المنكرات التي غمرت الأوساط العامة ، مشتكيا له مستغيثا به وموضحا له أن الأمور قد ازدادت خللا وسوء عما كانت عليه قبل في جوانب عديدة من مرافق الحياة العامة ، إذا أضفنا هذا إلى ما سبق تجلى بوضوح أن ذلك العصر قد شاهد ما يدعو إلى الإشفاق عليه من سوء الحالة التي انتهى إليها ، وأن التسارع إلى مساعدته والنهوض به من كبوته تلك ، أمر لا محيد عنه وموقف تدعو الضرورة إليه بإلحاح .

وهكذا يتوفر لدينا مما خلفه اليوسي فقط — وهو يتحدث عن أهل زمانه — أن الفساد بأنواعه قد انتشر في تلك الربوع ، وأن الحاجة ماسة للاصلاح والعمل على إنقاذ البلاد من الوهدة التي سقطت فيها . حتى أن الرجل أخذ يتتبع السقطات ويعلن عما قد لا يجد بعض الكتاب الشجاعة الكافية للتعريج على ذكره في جانب قومه فضلا عن الوقوف أمامه وقفة المتحدث عنه حديث التفصيل والتصريح ، مجاهرا بحوادثه مشهرا بعناصره ،

---

(1) المحاضرات : ص 106 .

(2) المحاضرات : ص 39 .

(3) انظر ما جاء في الاستقصاء بعد وفاة المنصور الذهبي إلى قيام الدولة العلوية من الجزء السادس .

مستفظعـا لوقائعه . وذلك مثل تشهيره بتلك الفعلة الشنعاء التي ارتـكبها أحد المرابطين الوافـدين على بلدة في جبـل من جبال هسـكورة مع فتى كان يتردد عليه ليلا في خبائه ويبيت عنده حتى افتضح أمره معه ولاذ بالفرار لما علم أن مـا كان يصنعـه بالفتى في خلوته تلك شاع شهرة ولم يبـق خافيـا على أحد . ثم يـأتي اليوسي في خاتمـة القصـة بما يشعر أن هذه الحـادثة ليست فلتة من الفلتـات أو نـادرة من النـوادر ، وإنما هي على العكس من ذلك . وهو ما جاء في قوله : « وبلغ الخبر إلى إخوة الفتى فتبعوه (أي المرا-بط النحرف) . ولم أدر مـا كان من أمره . ومثلـه كثيـر » (1) .

العـكاكـزة :

ثم يتعرض اليوسي إلى صنف آخر من العاهات الإجتماعية التي قد انتشرت في بعض القبائل . وهي التي أفرد لها الرجل تقييدا مستقلا كاملا فصل الحديث فيه تفصيلا عرف به أصحاب هذه العاهة التي هي نوع من الالحاد في العقيدة ونوع من التفسخ في الأخلاق ، والتي قد تعرض إليها في كتابه المحاضرات هذا في إشارة له عن الطرق التي كان يتوخاها بعض المصلحين من المشائخ دفعا للشرور وتأليفا للقلوب . ذلك التأليف الذى قد ينتهي غالبا إلى استصلاح ما أفسده الزمن في الناس ، وإلى الإنتهاء بهم إلى سواء السبيل أو على الأقل إلى الوقوف في وجه عبثهم بإبطال شرهم والحيلولة دونه ودون أقوامهم ، فلا ينالهم منهم أذى ولا تصيبهم منهم بلية .

أما تلك الإشارة فقد وردت في القصة التي قصها عن أبي عبد الله الشرقي الدلائي الذى ذكر عن والده الشيخ أبي بـكر أنه عامل العـكاكزة أولاد عبد الحق المنزول بالإكرام والترحيب لما هربوا ونزلوا بساحته وهـم

---

(1) المحـاضرات : ص 39 .

جياع . فسمح لهم بدرس ما هو من محصول الزاوية والأكل منه عند الحاجة مساعدة لهم منه وإسعافا . فأنكر ذلك عليه ولده الكبير أبو عبد الله محمد بن أبي بكر « وقال : ان هؤلاء فساق أو كفار . ثم هم ظلام محاربون . فكيف تعينهم وتبيع لهم زرع المساكين ؟ فقال أبوه : إني أريد أن أتخذ عندهم يدا . فإذا استلبوا مسكينا يوما وجاء إلي يشتكي كتبت إليهم كتابا ، فلا بد أن يراعوا هذا الخير فيردون عليه متاعه . فأنا إنما فعلت هذا لحق المساكين » (1) .

وهذه القصة قد تشير إلى ما يعانيه المصلحون من العناصر الذين داخل الكثير منهم الفساد ، وانتشرت في البعض منهم البدع وفي البعض الآخر ألوان من الألحاد والمنكرات . فأعيا أمرهم رجال السنة من مشائخ المغرب ومن كان على شاكلتهم بعض مشائخ الزوايا ، وأعجزهم ما انتهوا إليه وما استمرؤوه من البغي . فكانوا يتخذون طرقا مختلفة وأساليب متنوعة لمعالجتهم أو لاتقاء شرهم وإيقاف عدوانهم ودرء مفاسدهم كما هو الأمر بالنسبة لما جاء في قضية الحال .

وهؤلاء العكاكزة الذين انعقد بسببهم هذا الحديث الذي أشرنا إليه ونقلنا جزءا منه ، هم طائفة مبثوثة « ببعض أقطار المغرب الأقصى كبني عمير بتادلة ومن يضاهيهم ويجاورهم من بني ملال وبعض الكوودة (2) بزعير قرب الولي الصالح سيدى أبي يعزى (3) وكبني سبر (4) بقبيلة زمور (5) بجبل فزاز ، وكبعض القبائل ببني أزناسن (6) قرب تلمسان ، وكبعض الغنانمة بصحاري سجلماسة وتوات وما قرب إليهما (7) .

(1) المحاضرات : ص 145 .
(2) بفتح الكاف والواو الأولى والدال وسكون الواو الثانية
(3) بفتح الياء والزاى .
(4) بكسر السين وسكون الباء .
(5) بفتح الزاي وتضعيف الميم المضمومة .
(6) بكسر الهمزة والسين .
(7) هداية الملك العلام إلى بيت الله الحرام : ص 71

لقد عثت هذه الطائفة في الأرض واستشرى الفساد على يد أصحابها الذين انتحلوا لهم مذهبا خرجوا به عن دين الإسلام وانتحلوا لأنفسهم رسولا غير رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم ، ونسبوا له كتابا ادعوا أنه منزل على رسولهم هذا غير القرآن الكريم ، وابتدعوا الموبقات وأفشوا الشرور وكانوا بحق وباء على البلاد المغربية . حتى أغرى اليوسي بهم السلطة القائمة أيام المولى اسماعيل وأصدر ضدهم فتوى بوجوب قتلهم ، محرضا عليهم السلطان حتى ينفذ فيهم حكم الإسلام وحتى لا تأخذه فيهم رأفة ولا شفقة . فهم قوم مارقون لا تقبل منهم توبة ، وإن كل من ينتسب إليهم تكثيرا لهم وحبا في المتعة التي أباحوها وشرعوها وميلا إلى التفسخ الأخلاقي الذي عرفوا به ، يجب أن يعامل معاملتهم وأن يقتل مثلهم ويلقى مصيرهم (1) .

خاتمة :

وعلى كل حال فإننا قد نستخلص من جميع ما تقدم أن الحالة التي كانت عليها البلاد المغربية اجتماعيا في هذا القرن ليست بأقل سوء منها سياسيا . بل ان هذه الأخيرة كانت في أقل من المأزق الذى تردت فيه الأخرى في حين أنها هي التي تسببت في الكثير من هذه الفوضى وهذا الإنحلال ، مما جعل المجتمع المغربي يشتمل على شبه المتناقضات التي يعسر أن تجتمع في صعيد واحد إلا في مثل ما انتهت إليه البلاد مما يدعو إلى الإشفاق عليها من هذا الإنحلال والذوبان .

فبينما نجد في مغاربة ذلك العصر رجالا مصلحين يعملون على إصلاح وطنهم وذويهم فيقيمون المراكز العلمية والدينية منها بالخصوص ، ويعملون « على نفع الناس بتعليمهم ما يحتاجون من دينهم وما يحتاجون من أوراد النوافل والأذكار التي يتزودون ويتحببون بها إلى ربهم ويتقربون عاملين في ذلك على وجه المواخاة والمعاونة على البر والنصيحة ... وعلى وجه

---

(1) العكاكزة : ص 167 — 187 .

التعليم والإرشاد » (2) مثل أبي علي اليوسي وهم كثرة ليست بقلة ، أو على وجه المشيخة والتربية أمثال الشيخ ابن ناصر شيخ إاوية تمغروت ومن كان على شاكلته من شيوخ الزوايا الموفقين في مناهجهم ، والصادقين فيما هم بصدد القيام به نحو الدين ونحو أقوامهم وأبناء جلدتهم ، نجد أقواما اخرين يعيثون في الأرض فسادا فيجرون الوبال على بلادهم ويعملون على نشر الفوضى والتفسخ الأخلاقي وما ينجر عنه من مقومات العبث والفجور والمروق من الدين .

والذي يبدو أنه لو لم تكن هناك أصالة قديمة وعراقة مكينة في التعلق بالدين والتفقه فيه والغيرة عليه ، ولو لم يساعد هذا الذي سبق قيام المجموعات الدينية من رجال الزوايا وطرق نزهاء ومن علماء وفقهاء ينتسبون إلى السنة والجماعة أخلصوا لدينهم ولوطنهم فجاهدوا في الله حق جهاده ما استطاعت البلاد أن تتخلص بسهولة مما وقعت فيه بسبب تلك الفتن التي أتت على الأخضر واليابس في المغرب الأقصى أيام السعديين بعد وفاة المنصور الذهبي .

ولعله قد يتبادر إلى الذهن مما تقدم أن الفساد قد عم كل شبر شبر وكل بيت بيت بل وكل عنصر عنصر من عناصر هذه الربوع في تلك الحقبة من الزمن ، وهو ما لا نقصده بحال . ذلك أننا حينما تعرضنا إلى الحالة التي حللناها واستخلصنا منها ما اجتهدنا مخلصين في استخلاصه كنا معتمدين في كل ذلك الذي استخلصناه وانتهينا إليه ، على ما تمكنا من الإطلاع عليه من المصادر التي كتب أصحابها على ذلك العصر ، ومن بينهم الإمام أبو علي اليوسي الذي أثبت جل ذلك تصريحا أو تلميحا في كتابه المحاضرات الذي منه كان منطلقنا وعليه كان جل اعتمادنا في بحثنا هذا .

---

(2) المحاضرات : ص 161 .

والحقيقـة التي لا جدال فيها أن البلاد ما عدمت إذ ذاك الفحول من العلماء والمخلصين من المجاهدين والعاملين الصادقين ممن أجمعوا أمرهم على النهوض بأقوامهم والأخذ بيدهم وإنارة السبيل أمامهم وقد جاء ذكرهم ضمن هذا الفصل للحديث حول الحالة الإجتماعية للبلاد في هذا القرن . فكانت هاتيك العناصر المتقدمة الذكر هي نواة غراس آتت أكلها فيما بعد ، لما خلصت البلاد من ربقة أمراء الطوائف ، وانتقلت شؤونها إلى رعاية الدولة العلوية التي أمسكت بتلابيب الأمور ؛ وقضت على الكثير من الفساد آنئذ بالشدة التي لا هوادة فيها والتي جاءت على يد السلطان اسماعيل الذى استطاع أن يرجع المياه إلى مجاريها وأن ينشر الأمن بالربوع المغربية وأن يقلل من الفساد بقدر ما شجع على الأخذ بيد العلم والعلماء وتمكين المغاربة من الكرع من المنهل الصافي للمعرفة والثقافة تمهيدا لمن جاء بعده من خلفائه فخفف من وطأة الجدل الكلامي واستصدر الظهائر للاصلاح العلمي بتقديم الأصول على الفروع والاشتغال باللباب لا بالقشور (1) .

(1) النبوغ المغربي : ج 1 ، ص 274 .

الحيـاة الثقـافيـة

الطابع الثقـافي العـام :

لقد كان للحالة السياسية السيئة التي بات عليها المغرب الأقصى والتي انزلقت فيها الدولة السعدية وهي تقترب بخطى حثيثة نحـو انقراضها تأثير بالغ الخطر على النشاط العلمي والثقافي هناك . ذلك أن الفتن والحروب قد تولدت عنها مضايقات تجاوزت النيل من الأموال والأبدان إلى المساومات والمغالطات على حساب الدين والعقيدة مثل ذلك الذى حصل على يد الشيخ المأمون السعدي وهو يسلم بلدة العرائش المغربية إلى حلفائه الأسبان . فـكان منه أن راود العلماء على مشايعته في أمره هذا مستصدرا منهم فتوى في مشروعية ما أقدم عليه . فتفرقوا أيدي سبأ وفروا بأنفسهم مختفين أو مهاجرين (1) .

وتبعا لذلك ، فرت الثقافة من أهم العواصم والمدن التي اختصت بها قديما دون غيرها واشتهرت باحتضانها لها دون سواها ، وذلك لفرار أصحابها منها ، وانتقلت بموجب ذلك معهم من تلك المدن إلى البوادي

---

(1) مجلـة البحث العلمي بالمغرب : سن 3 ، عـد 7 ، ص 13 .

والصحارى مستقرة هناك ، متأثرة بأحوالها الجديدة ، مستجيبة لمتطلباتها ، خادمة لأهل تلك النواحي وعقلياتهم ، ملبية لرغائبهم مسايرة لأفكارهم وحاجاتهم حتى طبعت بهم عمقا وأسلوبا .

ولعل هذا هو الذي دعا الإمام اليوسي وهو يتحدث على الحركة الثقافية بسجلماسة عند إقامته بها إلى أن يقول : « ... غير أن علوم الصحراء قاصرة . إنما هي ما قرب من فقيهات ونحويات . ولا يترقون إلى ذروة العلم ولا يخوضون في لجج العلوم العقلية والنقلية ... » (2) . ولعل هذا أيضا هو الذي مال بهم إلى العناية بالفقه فروعا لا أصولا ، في بعد عن الإجتهاد والإبداع إلا ما يبدو من محاولات نسبية داخل المذهب المالكي تبدو في فتاوى لجزئيات معينة وقضايا نزلت ومسائل أثارتها حاجة العامة في باب من أبواب المعاملات أو فرع من فروع العبادات . كما نشط أيضا الجانب الالاهي العقائدي في حركة جدلية يشوبها تعلق بالنصوص واشتغال بظواهرها ، ويخدمها المنطق الجدلي لمساعدة التخريجات والمماحكات والمناقشات اللفظية . ولعل هذا أيضا هو الذي يفسر لنا العناية آنئذ بالقواعد اللغوية ، والحفظ للدواوين الشعرية القديمة ومقامات الحريري حتى تتوفر اللغة التي قد تساعد على نظم المدائح النبوية وتغذي الشعر التقليدي منه والتعليمي .

فليس هناك تطعيم للفكر المحلي المقيم هنا وهناك ، والموزع على الأرياف والشعاب ، رغما عن الرحلات العديدة التي كان يقوم بها المغاربة سواء منها تلك التي تتوجه إلى المشرق العربي لأداء فريضة الحج أو تلك التي وردت مع الأندلسيين الوافدين على المغرب في هجرتهم التوديعية لأوطانهم ونزوحهم النهائي عن أراضيهم ، أو تلك السفارات التي كانت بين المغاربة والبلاد الأجنبية والتي لم تحمل همم هؤلاء السفراء إلى البلاد الأجنبية على الإستفادة مما تقع عليه أنظارهم أو بلغ إلى مسامعهم أو التقى بهم في طريقهم

---

(2) رسالة اليوسي جوابا على رسالة المولى اسماعيل : ص 15 .

ذهابا وإيابا وإقامة . حتى أن الذي يعود إلى مخلفات ذلك العصر من تآليف في الرحلات لا إخاله يجد ما يشبع نهمه من الوقوف على الجديد الذى يحمله أصحابها فرضا وتقديرا ويستفيدون به من رحلاتهم تلك ، اللهم إلا ما يكون منه عرضا وعن غير قصد دونما إثارة أو تنبيه أو تحليل . ثم لا يمكن أن نغفل أن البلاد المغربية تربة خصبة انتشرت عليها حقول الإيمان والحفاظ عليه والتعلق به مع المحافظة على السنة النبوية والتبرك بآل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم . حتى أن جل الدول التي ترعرعت فيها اعتمدت في دعواتها إما على الحركات الدينية والدعوة إليها والإقبال على الجهاد لصيانتها والذود عنها ، أو لما لها من رصيد الانتساب إلى البيت النبوي الشريف فتلقى من المساندة والمناصرة ما يركزها ويقوي دعائمها ويشيد بنيانها .

كل هذه العناصر الروحية والتقلبات السياسية ، مجتمعة أو متفرقة ، تؤلف ما يفسر انتشار الرباطات المغربية ثم كثرة الزوايا من بعدها ، حتى كان نزوح الكثير من العلماء أيام الدولة السعدية غب وفاة أحمد المنصور الذهبي معتصمين بالمناطق النائية عن فاس ومراكش العاصمتين اللتين شاهدتا أكثر من غيرهما التعسف والإنتهاك للحرمات حتى شملتهما الفوضى وأمسك بتلابيبهما الخراب والدمار . فجاء ذلك النزوح متمما لتلك العوامل ومنشطا للروح الثقافية الدينية التي تؤدي إلى الإبقاء على ذلك التمسك بالسنة والحفاظ على السلفية المعروف بها مذهب الإمام مالك رضي الله عنه .

فكان من الطبيعي أمام هذا التشتت والتفرق أن لا يجد اليوسي ما يكفيه من التزود من المعرفة عند رحلته لطلب العلم في مركز واحد من المراكز التي انتقل إليها وهو يطلب المعرفة يبحث عن الثقافة . فنراه ينتقل لتلك الغاية في ربوع المغرب هنا وهناك باحثا عن العلم وأهله وآخذا من كل مركز شيئا يبل به غلته ؛ إذ يذكر أنه تحول إلى سجلماسة ودرعة وسوس ومراكش وبلاد القبلة ودكالة والقبائل السوسية وجزولة وجبل دمنات والزاوية الدلائية وتارودانت . وهي مراكز جاء ذكرها عند اليوسي فيما

خلفه لنا من حديثه عن نفسه في رحلته لطلب العلم أعوام ستين وألف هجرية .

يؤكد ما ذهبنا إليه ، من أن دائرة المعرفة ضاقت كثيرا في تلك الفترة من الزمن بالبلاد المغربية ، ذلك التشابه القوى فيما بين تلك المراكز في العلوم وطريقة تدريسها ومدى ما يصل إليه دارسوها من الاكتفاء بمعرفة ظواهرها والوقوف على مبادئها الأولية دونما تعمق ولا إحاطة شاملة مع بذل المجهود في النقاش حولها شرحا وتخريجا واعتراضا ونقضا في حدود التقليد ومسامتة ما انتهى إليه المجتهدون من قبل .

وهذا الذي أشرنا إليه ربما شعر به اليوسي عندما أخذ يتحدث إلى المولى اسماعيل عن النشاط الثقافي بسجلماسة وما انتهت إليه هناك مجالس العلم آنئذ من الحركية والنشاط والإقبال المتحمس ، إلا أنها مع ذلك كانت قاصرة في كمها وكيفها لا تتجاوز ما هو معروف من العلوم الشرعية واللغوية مما يعبر عنه بالمقاصد والوسائل .

ولعل شعوره بالتفوق على أقرانه في تلك الحقب من الزمن فجعله يتحدث عن نفسه حديث المعجب بها والمغالي في إطرائها بمثل قوله : « ... ولا تظن أني كعلماء زمانك . كلا . ولكن كعضد الدين وفخر الدين وسعد الدين وحجة الإسلام . ولا تظن أني أقلدهم فيما أنقله عنهم بل إن تبينت لي حجة واتضحت عندي محجة قبلته وإلا نبذته بالعراء وطرحته بالورى » (1) ، لعل هذا الشعور الذي جره إلى مثل هذا الحديث عن نفسه لم يكن في الغالب بدافع التباهي بها . كما أن مرجعه فيما يظهر ليس التبجح بالنفس أو الغرور الذي يعتري المدعين غالبا كما توهمه البعض ممن كتبوا عن الرجل (1) . وإنما هو في نظرنا إقرار من جهة بحقيقة أحسها

(1) الدر المنضد الفاخر : ورقة (217 — أ) وما بعدها .
(1) نفس المصدر السابق .

ولمسها ، وإشارة في الوقت نفسه إلى ما بينه وبين غيره من الفوارق فيما انتهى إليه هو وما وصل إليه غيره . كما أنه من جهة أخرى لوم وتوبيخ وتقريع غير مباشر لأولائك الذين لم يعرفوا له حقه ولم يقدروا له منزلته بدافع الحسد الذي قد لا يتنزه عنه البعض من العلماء الذين يسوءهم قصورهم أمام نبوغ غيرهم فلا يتقبلون بارتياح تفوق معاصريهم عليهم فيركبون في جانب هؤلاء مركبا صعبا للغض منهم والغمط لشخصهم والنيل من مواهبهم . ومع ذلك فإننا نجد اليوسي الذي قد تسرع في الرد على حاسديه من أهل فاس بالبيتين اللتين سار بذكرهما الركبان وتناقلتهما الألسن والمجالس واللتين هما :

ما أنصفت فاس ولا أعلامها ... علمي ولا عرفوا جلالة منصبي
لو أنصفوا لصَبَوْا إليّ كما صبا ... راعي سنين إلى الغمام الصيب

نجده يندم على ما صدر منه بسبب ذلك التسرع الذي أظهره في مظهر المتمدح والمفتخر والذي يخشى أن يتسبب له في الإثم والحرج . وهو الحريص على طاعة مولاه والمتعلق بحبه ورضاه . فيتوجه إليه مبتهلاً ونادما ومعتذرا فيقول : « وإنما استسهلت . وأستغفر الله التمدح والإفتخار ، لأن ذلك مباح في الشعر مسلوك في سائر الأعصار والأمصار » (2) .

ثم إن هذا الطابع الثقافي العام الذي سبقت الإشارة إليه ، وإن هذا المستوى الذي عليه اليوسي مما هو نادر عند معاصريه قد يرجع سببه الأهم إلى عدم وجود نبع فياض من العلم متفجر على عيون متعددة ومتنوعة في مركز واحد من المراكز الثقافية . فترتب على ذلك أن من قبع في مركز واحد واكتفى به لم ينته إلى ما انتهى إليه صاحب المحاضرات بموجب تنقلاته العديدة في غالب تلك المراكز ، فيأخذ من البعض ما قد لا يجده في البعض الآخر ، وبموجب ما كان له من الاستعداد للاستفادة مما اطلع عليه فيها . وفرق بين القابع والمتنقل ، وبين الراكد والجاري .

---

(2) المحاضرات : ص 74 وما بعدها .

والظاهر أن الأكثرية الساحقة من هذه المراكز ، وما اشتملت عليه من الدروس والمدرسين ، لها أهمية علمية وتثقيفية محدودة سواء من حيث المادة أو من حيث الأسلوب . ومن أجل ذلك ساد الاعتقاد وتردد على الألسن أن العلم كاد ينقطع من المغرب في القرن الحادى عشر لولا ثلاثة من العلماء يعدون في نظر القوم أساتذة العصر وشيوخ الجماعة وهم : السيد محمد (بفتح الميم) بن ناصر الدرعي بتمغروب ، والسيد محمد بن أبي بكر الدلائي في الدلاء ، والسيد عبد القادر الفاسي بفاس .

وهذا ما يبدو أنه خامر اليوسي ضند إقباله على العلم فاضطر إلى التنقل في ربوع المغرب جريا وراء الاستفادة الكاملة والاطلاع الواسع والتزود الكافي . وهي الغاية التي سبق أن أشرنا إليها . كما يبدو أن هذا الإحساس بما كان يهدد العلم مع ما هو عليه من الضحالة في جل المراكز الثقافية متفرقة ، وأن هذا الشعور بمكانة أولائك الثلاثة لم يبتدىء من اليوسي لينتهي عنده . ولكنه كان شعورا سائدا عنده وعند غيره من الناس مما جعلهم يعبرون عنه في كتبهم وهم يكتبون عن هذا العصر بقريب مما أثبتناه قريبا (1) .

وإذا ضممنا ما ذكره اليوسي وهو يتحدث عن مشائخه وما أخذ عنهم إلى ما ورد في بعض المصادر من أن الوطن السوسي كانت تعج قراه بالكتاتيب لتلقين القرآن وما يتصل به من مبادىء اللغة وشيء من الديانات ، ثم عممنا ذلك على باقي المناطق المغربية بحكم الجوار وتشابه الظروف وتقارب الحياة العامة تحت تلك السحابة القاتمة التي تعم البلاد بسبب الظروف السياسية الشديدة التي تجتازها ، وهو ما تكاد الكتب التي كتبت في أعقاب تلك المرحلة عن ذلك العصر تتظافر عليه وتعقد حوله الإجماع ، انتهينا إلى أن العناية كلها كانت منصرفة إلى الحفاظ على كتاب الله العزيز حتى تتوارثه الأجيال جيلا بعد جيل خشية على ضياعه وارتفاعه من بين

(1) طلعة المشتري : ص 133 .

ظهرانيهم بارتفاع أهله وقبضهم ، وخشية من تلاشي جمعهم وانفراط عقدهم في خضم هاتيك المعارك والفتن ، وإلى أن العقول المتكاسلة التي أخذت بموجب ما يحيط بها من الأجواء في الركود والوقوف على ما عندها تحول الإستفادة مما بقي بين أيدي القوم من تراث العلوم الدينية والقلة القليلة من العلوم العقلية ، وتعمل على خدمته وتنميته - واهمة - بالماحكات الجدلية والمناقشات اللفظية شرحا وتحشية واعتراضا وجوابا على الطريقة المتبعة والسنن المعروف عن الحركات العلمية واللغوية في ظروف الركود وسيادة البلبلة والإضطراب وما يعتريها من الخوف الذي يتولد عن الكسل الذهني والجمود العقلي ، حتى أننا نجد العناية بالمقامات الحريرية في ذلك العصر تكاد لا تقل عن العناية بالبقية الباقية من الفقهيات وما يتعلق بظواهر الديانات ، ولا تبلغ شأوها العناية بغيرها من أمهات ا دب واللغة العربية والمصادر الأصيلة للشريعة الإسلامية تشريعا واعتقادا .

وهذا الذي ذكرناه نجد اليوسي نفسه يتعرض إليه في كتابه المحاضرات تلويحا لا تصريحا . فيتحدث حديثا مطولا عن فتنتين مر بهما وهو في طريقه إلى سجلماسة حول اشتغال العامة بالتوحيد على غرار معالجة الطلبة والعلماء والدفع بهم إلى اقتحام ذلك ، حول كلمة الهيللة (1) ، وما دار فيها بين طلبة العلم هناك فيما بينهم ، ثم فيما بينهم والعامة ، مذكرا بما حدث في عصر مضى من الجدال حول ما أثاره كلام العلامة الهبطي في الموضوع (2) . ثم هو بعد ذلك يدفع ليشارك القوم ببيانه وتحقيقه في الموضوع فيشبع المسألة تحليلا وشرحا وتوضيحا ، مشيرا على هؤلاء الطلبة بما يجب عليهم تجاه العلم وتجاه طريقة تمكين الناس منه بما يخدم الآخذ والمأخوذ معا . فيجلب المصلحة ولا يوقع في المفسدة . وهي نفس الطريقة التي استفادها من أستاذه ابن ناصر وسار عليها هو عند تصديره للتدريس وتلقين العلم للناس . فيميز بين العامة الذين يكتفي معهم بالمبادىء خالية من النقول

---

(1) المراد بالهيللة كلمة « لا إلاه إلا الله » وهي كلمة لإخلاص . راجع فصل الجدل العقائدي من هذه الدراسة .

(2) مشرب العام والخاص من كلمة الإخلاص : ص 69 وما بعدها .

والتفاصيل العلمية العميقة بما يتناسب مع أذهانهم ويكون في مستوى بساطة عقولهم ومداركهم ، وبين الطلبة المختصين فيتجاوز بهم تلك المبادىء إلى ما هو أعقد وأعمق مما يناسب الرسالة التي تنتظرهم (1) : ولعلها لا تبعد كثيرا عن طريقة الغزالي في المضنون به على غير أهله والتي انتهى إليها بعد عصيب ما مر به في حياته الثقافية الروحية . ثم هو لا يطوى صفحة حديثه حول كلمة الهيللة إلا بعد أن استوفى الإشارة إلى أهمية هذه القضية بما استوجب منه تقييدا مطولا شاملا أخرجه فيما أسماه من تآليفه بكتاب « مشرب العام والخاص من كلمة الإخلاص ، أومناهج الخلاص من كلمة الإخلاص » .

ثم يتعرض اليوسي أيضا في كتابه المحاضرات إلى حادثة قريبة من التي سبق تعرضه إليها تكشف عن عقلية العصر العلمية التي تميل إلى الجانب الجدلي والمسامتة والتقليد وما لا يتجاوز هذا المعنى مما يظهر أنه بات المقصد الأسمى من السعي إلى العلم ، والغاية القصوى التي يلزم الوصول إليها من طرف المشتغلين به والمتصدرين له . فيذكر المناظرة التي وقعت بينه وبين الشيخ أبي عبد الله المرابط الدلائي الذي « جمع خطبا وعظية وتقدم إلى أهل الوقت في بلده ليكتبوا عليها تقريضا » (2) . فيفيدنا عن قصد أو عن غير قصد فائدتين اثنتين :

إحداهما هي التي تتمثل في الكشف عن مظهر من مظاهر تجميد العقول وتوفير دواعي تكاسلها بتعويدها على الإعتماد على الغير بما يجره لها مثل جمع الخطب الوعظية في كتاب ليأخذها الخطيب الواعظ ويسردها ميتة سرد الناقل لا المنشيء . وفي ذلك ، زيادة على الميل بها إلى الكسل والجمود ، ترويض للنفوس على البعد بها عن فهم مغازى الشريعة الإسلامية ومقاصدها في أحكامها وما يتعلق بها مما يتصل بأمثال الخطب التي تلقى في المناسبات

---

(1) الدرر المرصعة : ص 326 .
(2) المحاضرات : ص 141 .

الدينية كالجمعة وغيرها . فيقع البعد عندئذ عن الغاية التي من أجلها فرضت أو دعي بها إليها .

وثانيتهما هي التي تتجلى في الحوار العلمي الهامشي الذي جرى في تلك المناظرة بين التلميذ والشيخ وما انتهت إليه مما تولد عنه شعور بالإنتصار والغلبة من جانب ، وبالإنكسار والإنقباض من الجانب الآخر .

ويختم اليوسي هذه الإشارة التي كانت منه وهو يتحدث عن قضية الهيللة ، بقضية العلم النبوي وما انتهت إليه من خلافات وأثارته من مشاكل في الأوساط العلمية المغربية (1) . الأمر الذي نتج عنه تحريك أقلام العلماء تعريضا فيما بينهم وإثارة للضغائن في نفوسهم .

وإذا ما التفتنا إلى ميدان الأدب والفن الكلامي من جوانب الثقافة وجدنا حركة أدبية متممة في عمومها للاطار الفكري الذي تحلى به هذا العصر ، والذي طبعت جوانبه بطابع التقليد وما يتبعه من الكلل الذهني وعدم القدرة على ما يناسب الحياة من تجديد وابتكار أو تحرر واستقلال . ذلك أن الحركة الأدبية التي تطالعنا في القرن الحادي عشر بالمغرب — فيما علمنا — حركة لم تستجب لما يجري داخل المجتمع ، ولم تخدم غرضا ولا مظهرا ولا مطلبا من شؤون ذلك العصر ، كما نجدها قد جانبت كل ما يدور في ذلك العصر داخل الميادين السياسية وغيرها ، كأنها لم تكن منه ولا ينتسب إليها ، منشغلة بمعالجة دووابن الأقدمين والمقامات حفظا وتحليلا وشرحا ، أو مهتمة بمعالجة النظم الذي لا يتجاوز الشعر التعليمي والأمداح النبوية بما هو معروف ومتداول بينهم وما هو خال من الجوانب الفنية التي تهز المشاعر غالبا . كما لا يتجاوز الإخوانيات أو المديح وغيره من الأغراض الشعرية التقليدية في ثوبها القديم . ولعلنا نتبين هذا أيضا مما يشعرنا به اليوسي في كتابه المحاضرات وهو ينشر هنا وهناك من محفوظاته شعرا غزيرا بمناسبة أو بغيرها حتى عقد أبوابا كاملة ، ختم بها كتابه هذا ، تكشف عن حفظه

(1) نشر المثاني : النصف الثاني . ص 146 ؛ الدر المنضد الفاخر : ورقة (218 — أ) .

الوفير للشعر القديم ، فيشعرنا من خلال ذلك بما يعلمه من تقدير قومه لهذا الطابع الأدبي والعلمي المغرم بالحفظ والإستعراض اللذين يبلغ التقدير والإعجاب والإقرار بالنبوغ والمعرفة عندهم لمن يتوفر على أكثر نصيب منهما مبلغ التقديم والتفضيل والإمامة . ومن أجل هذا أيضا يضطر إلى قضاء شهر ونصف الشهر في المذاكرة والمراجعة كامل الليل مع مجموعة من الطلبة حتى لا تبقى أبيات الخلاصة (1) تشذ عن فكره ، وحتى لا يبقى الوحيد الذي لا يستحضر النصوص منها دون غيره من أهل السوس الأقصى الذين قدم عليهم وقتئذ فوجدهم يشتغلون بتصريف الأفعال مع استحضار النصوص من تلك الخلاصة (2) .

وليس معنى ذلك أننا لا نعثر في ذلك العصر على عينات أدبية رفيعة أو تأليف علمي رفيع ، ولكننا نريد أن نقول : إن هذا الذي ذكرنا هو الطابع العام الذي يحياه العصر والذي تولد عن الحركة الثقافية بالمغرب في ما بعد المنصور الذهبي بالخصوص إلى أيام المولى اسماعيل العلوي ، إذا ما استثنينا القلة القليلة الموزعة فيما بين الدلاء وغيرها من المراكز المشهورة اللامعة آنئذ . حتى أن الحركة الصوفية نفسها — وهي الحركة النشيطة المنتشرة في ذلك الوقت والتي طبع بها هذا العصر — نجدها هي الأخرى حركة تقليدية . ذلك أنها لا تتجاوز الأذكار والأوراد والحرص على الدعوة للمواضبة على القيام بالعبادات والتزام ما يتصل بها مما يمس التقوى والإقبال على الله إقبالا شخصيا يخدم العامة ولا ينشط الخاصة . لا تتجاوز هذه الحركة ذلك إلى معالجة المشاكل الروحية والماورائية التي تحرك المواهب وتعمل على تفتيق الأذهان وتعميق الأفهام ، سعيا وراء البحث عن تحديد للحركات الإصلاحية ومساهة في الفلسفات والنظريات العقلية .

غير أن الحق الذي ينبغي أن يلاحظ وأن لا يهمل بحال ، هو أن هذه الحركة على ما اعتراها من ضعف وطبعت به من تقليد وصبغة جدلية

---

(1) وهي ألفية ابن مالك في النحو .
(2) المحاضرات : ص 142 .

خالية من الإبتكار والتجديد قد خدمت ذلك العصر خدمة كبرى ، لا من الناحية السياسية وحدها ولا من الناحية الإجتماعية مفردة ، ولا من الناحية الثقافية مستقلة عما دونها ، ولكنها خدمت كل ذلك ، مضافة إليه خدمتها لمظاهر القومية المغربية بصيانتها لشخصية الأمة في دينها ولغتها وحضارتها ؛ إذ نجدها قد وقفت في وجه التدخل الأجنبي الذي عمل على القضاء على الشخصية المغربية بمحاولته لتفكيك الوطن والهيمنة عليه واستعماره استعمارا مباشرا يأتي على الأخضر واليابس فكرا وروحا ومادة . كما نجدها قد أذكت الشعور الديني وحافظت على الطابع الإسلامي في تلك الربوع أيام أن حاول الكثير من المشعوذين اليهود وغيرهم التلبيس على المغاربة في دينهم ومعتقداتهم ، وساهمت مساهمة كبرى في العمل على الإبقاء على اللغة العربية من جهة ، وعلى العلوم الدينية من قرآن وحديث وفقه من جهة أخرى . فلم تستطع الأيام أن تقضي على ذلك وإن استطاعت أن توقف الحركة التجديدية والتقدمية في ذلك الميدان عند مغاربة القرن الحادي عشر الهجري .

والخلاصة أن الثقافة المغربية في هذا القرن قد صبغت ، علاوة على مظاهر التقليد وعدم التقدم العلمي والحضري ، بل وعدم القدرة على الإحتفاظ ما خلفه الآباء إلى الأبناء ، بالصبغة الدينية الصوفية ، وأن الذي استأثر بهذه الثقافة من الوطن المغربي أكثر من غيره هي المناطق القروية والريفية النائية ، مبتعدة عن المدن والعواصم اقترابها من الصحاري والجبال ، متشابهة تشابها واضحا في النوع ، ومتقاربة تقاربا بينا في المنهج .

ولعل الوقوف على أهم ما اشتهر في ذلك الوقت من مراكز العلم والمعرفة اشتهارا جعلها مقصودة من أصحاب الهمم ممن لهم رغبة قوية إليها يحدوهم التفقه في الدين وينشطهم الإلمام باللغة العربية وآدابها ، ولعل الوقوف أيضا على ما يجري فيها من حركية وحيوية وسلوك ومنهج يعطينا صورة متكاملة ، بتكامل عناصر هاتيك المراكز وانضمام بعضها إلى بعض ، على الجو الثقافي المغربي الذي حاولنا شرح جوانبه وتحليل معطياته

وتعليل مظاهره في هذ االذي قدمناه ، تمهيد اللوصول إلى الصورة الحقيقية التي كان عليها وتجلى فيها .

المراكـز الثقـافية الهـامة :

أما المراكز التي نعنيها بالذكر ، والتي نريد التعرف إلى الثقافة المغربية من خلال ما يجرى فيها فهي : فاس ، ومراكش ، والزاوية الدلائية ، والزاوية العياشية ، وسجلماسة ، وايليغ ، والزاوية الناصرية بتمغروت .

فـاس :

أما فاس فإن أهم ما فيه من معاهد علمية هو معهد القرويين والزاوية الفاسية بالقلقليين والزاوية الفاسية بحي المخفية (1) والتي غلب عليها الطابع الصوفي فعرفت به ؛ إذ لم يكن لها شأن يذكر في الميدان العلمي الذي كانت لها فيه مشاركة محدودة غير ذات بال .

فإذا استطاعت الفتن أن تزحزح معهد القرويين عن شهرته التي كانت له في القديم ، فأذبلت منه الفتيل وقللت من أهميته حتى كاد يخلو مما عج به في الماضي من حلقات علمية في مختلف الفنون ، وانتهت به في بعض الأوقات إلى أبعد من هذا الحد مجاوزة به ذلك في غير ما مرة إلى تعطيل الفريضة جماعة وتعطيل التراويح بل ونعطيل الجمعة والأذان به ، وتعطيل ليلة القدر أيضا ، وهي التي تعتبر في نظر المغاربة من أعظم الليالي التي تقام في المساجد أين يجتمع الرجال والنساء والأطفال والشباب قياما على الصلاة إلى طلوع الفجر ، وهي السنة المتبعة إلى اليوم في كبريات المساجد داخل المدن هناك ، وإذا ما تمكنت أيضا من أن تصرف الكثير من الطلاب عن فاس فيتخلفون عن متابعة ما هو مألوف بهذا المعهد من علوم ومعارف من جراء

---

(1) بفتح الميم وسكون الخاء وكسر الفاء وتضعيف الياء .

ذلك وبموجب غياب الخاصة والشيوخ وابتعادهم عن عرصات التدريس به أيضا ، خصوصا أيام فتنة محمد المأمون السعدي وهو يبحث له عن سند يقوى به ليضفي على ما أقدم عليه من تسليمه للعرائش إلى حلفائه الأسبان من مشروعية باستصدار الفتاوى الشرعية لاستساغة هذا العمل الفظيع منه كما سبق أن وقفنا عليه ، فإنها لم تستطع أن تعطل فاسا مما لها به الصدارة والشهرة إطلاقا . كما لم تستطع أن تأتي على ما قام تلبية لحاجة العصر وخدمة للدعوة إلى الجهاد التي نادى بها رجال الزوايا في الآفاق واستجاب لها الناس هنا وهناك .

فليس غريبا بعد هذا إذن أن تتحول المجالس إلى المراكز الجديدة التي أسست على يد الرجال الذين ينتسب إليهم أهل الحل والعقد في هذه المرحلة العصيبة من الحياة المغربية والذين يتزعمون تلك المراكز التي تركزت حولها الأنشطة لتبنيها ما يستجيب لرغبة الأمة في إنقاذ البلاد من الوهدة التي تردت فيها فحيل بينها وبين شخصيتها الدينية والثقافية ، وبينها وبين كيانها السياسي أو كاد ذلك .

ومن أجل ما تقدم ذكره نرى نشاطا متزايدا ، والتفافا ملحوظا ، حول زاوية القلقليين التي أسسها عبد الرحمان الفاسي للذكر وخدمة التصوف ، والتي استجابت من بعده وعلى يد تلميذه وحفيد أخيه شيخ الجماعة عبد القادر الفاسي إلى خدمة العلم دونما إهمال لما كانت تقوم به من قبل على يد مؤسسها الأول فنشطت في الميدانين نشاطا حفظ لها ذكرها ورفع من شأنها حتى عدت ثالثة الثلاثة التي احتضنت المعرفة والتي لولا ها لانقطع العلم بالمغرب .

فإذا نحن قد تعرفنا إلى فحوى العلوم التي تدرس بفاس عموما ، والتي لاقت إقبالا ورواجا بين الطلاب هناك ، أمكننا بعد ذلك تصور الحركة العلمية التي تجري بين عرصات هذين المركزين وداخل حلقاتهما ، وتصورنا مع ذلك الآفاق التي يمكن لهاتيك العلوم أن تفتق إليها أذهان روادها والمترددين عليها ، خصوصا إذا أسعفنا بالإطلاع على أسلوب هاتيك الدروس في الإلقاء والتبليغ .

أما هاتيك العلوم التي كانت تدرس بين جدران هذين المقامين ، والتي كادت تتظافر أقوال الباحثين والمؤرخين للثقافة الفاسية عليها فإنها لا تتجاوز الفنون التقليدية والتي ليس للأذهان بعيد عهد بها من فقهيات وعقائد وأصول ونحو ، وقراءات وبيان ومنطق ولغة ، وتصوف وحديث (1) . فتتجه مدارسة القوم لها إلى العناية بحفظ متونها ومختصر نصوصها للتحقيق فيها والتعليق عليها في معالجة لعبارتها شرحا وتحليلا ، ومقارنة وموازنة ، وتخريجا لما فيها من معان يثور حولها الجدل اللفظي .

ونحن عندما نرجع إلى النشاط العلمي في تآليفه المؤلفة آنئذ ، وعندما نقف على ما ذكره بعض الطلبة وهو يتحدث عن بعض المجالس التي كان يحضرها نزيد تأكدا من أن الدراسة آنئذ كانت كثيرة العناية بالشروح والحواشي وحل مغلق التراكيب والمختصرات (2) . وهي الطريقة التي لا تثمر غالباً أكثر من القدرة على الجدل والتصرف في العبارات والألفاظ التي تعالج أكثر ما تعالج مؤلفات العلوم دون العلوم نفسها ؛ ولهذا لا تكون هذه الطريقة مجدية في تقدم العلوم والإضافة إلى بنيانه والخدمة له إنتاجا وتشييدا . وهذا ما كان ظاهرة هذا العصر في الحركة العلمية والأدبية القائمة بمعاهد فاس تحت ظل العهد السعدي الأخير .

مراكش

وأما مراكش فلم يكن حظها بأسعد من حظ فاس في غمرة هذه الفتن وما جرته عليها من محن ومصائب شملت جميع أوجه النشاط التي من بينها الوجه الثقافي الذي يعد بحق وجه البلاد وعنوانا عليها .

---

(1) مجلة البحث العلمي : س 3 ، عـد 7 ، ص 19 وما بعدها .

(2) هذا الطالب هو أبو عبد الله محمد بن أحمد ميارة الفاسي المتوفي سنة 1072 هـ . ينقل لنا سماعه البخاري على الفقيهين أبي القاسم بن أبي النعيم وأحمد المقري فيقول : « سمعت عليهما معا صحيح البخاري نحو ست ختمات . كانا يجلسان بمجلس واحد بجامع القرويين . ويحضر مجلسهما جميع أعيان طلبة فاس وغيرهم من العدول والعامة ويحضرون شروحا وحواشي عديدة ... فاستفادوا وأفادوا ... وذلك كله بقراءة شيخنا محمد بن محمد البوعناني » . مجلة البحث العلمي : س 3 ، عـد 7 ، ص 20 .

ومعلوم أن مراكش التي هي إحدى العاصمتين الهامتين بالمغرب الأقصى قد عرفت في تلك الفترة فتورا ثقافيا ملحوظا ومهولا في آن واحد. فلقد تركها جمع غفير من العلماء في اتجاه إلى مسقط الرأس أو في اتجاه للبحث عن موطن يضمن هدوء البال، والبعد عن العواصف في حالة من الهلع والفزع عظيمين تولدا عما انتابها من ويلات ناتجة عن الكر والفر بين ابناء المنصور فيما بينهم أولا وفيما بينهم وبين من نازعهم الملك والسلطان ثانيا، من أمثال الحاحي وابن أبي محلى من رجالات سوس.

ولعلنا لا نستطيع أن نغفل ما لحق المكتبة السعدية التي لاقت من المنصور الذهبي من العناية ما جعلها كنزا ثمينا لا يضاهى، لما اشتملت عليه من النفائس والذخائر، ولما ضمت من النوادر التي قل أن توجد في غيرها من المكتبات الكبرى، والتي لاقت من بعد المنصور على يد ابنه زيدان وهو يسلمها إلى أيدي الدخلاء الأجانب من المرتزقة تأمينا منه لهم عليها لنقلها عند وقوع إجلائه قسرا عن عاصمته الحمراء إلى مأمن بعيد عن صروف الدهر وغوائله، ما حولها فريسة سائغة للنهب والقرصنة قدمت إثر هذه العملية هدية سائغة إلى مكتبة الاسكوريال بمدريد لتستقر نهائيا فيها (1).

وليس أدل على ما انتاب مراكش من الكساد الثقافي آنئذ من حرص زيدان السعدي، وقد هاله الفراغ العلمي الذي يعيش فيه هو وعاصمة ملكه، على استجلاب العلماء لها ومحاولة حملهم على الإستقرار فيها بإغرائهم بالمال (2). كما أن خطة قضاء مراكش أثناء تلك الفترة الصعبة التي مرت بها قد تداولها علماء سوسيون تتلمذ عليهم اليوسي هناك (3). وهم: عيسى السكتاني صاحب التآليف الفقهية والكلامية المشهورة (4)، وقد

---

(1) نفس المصدر السابق : ص 22 .
(2) نفس المصدر السابق : ص 23 .
(3) نفس المصدر السابق .
(4) نفس المصدر السابق .

أسند إليه السلطان زيدان السعدي قضاء الجماعة في حاضرته (1) ، ومحمد المزوار الرسموكي السوسي وقد تولى منصب القضاء بمراكش كما تولى الوساطة إلى الوليد بن زيدان (2) — وبإذن منه — لدى الدلائيين عند نزوع محمد الحاج الدلائي إلى الحكم (3) ، ومحمد بن ابراهيم الهشتوكي وقد تولى هو الآخر قضاء مراكش أيضا (4) . وثلاثتهم أساتذة اليوسي كما ذكرنا . التقى بهم وأخذ عليهم عند زيارته لمراكش في رحلته لطلب العلم (5) . ولعلها تلك التي جاء ذكرها في كتابه المحاضرات وأرخ لها بأنها كانت أيام السلطان محمد الشيخ ابن زيدان (6) المتوفى سنة (1064 / 53 — 1654) (7).

والظاهر أن هذا الذي حدث من تولية قضاء مراكش لأمثال هؤلاء العلماء من أبناء سوس من جهة ، ومن كون علمائها في أغلبيتهم الساحقة من غير أبنائها من جهة أخرى ، يقوم دليلا آخر على شرود العلم وأهله من البلاد حتى أصبح مستوردا في أشخاص العلماء الطارئين أو أشباه الطارئين الذين تعرض عليهم المناصب الشرعية الهامة بدافع الاضطرار لا الإختيار ، كما تعرض عليهم مناصب التدريس كذلك ، إذ يستبعد كثيرا أن يكون ما حدث من قبيل الصدف التي تعرض في الحياة . لكن الذي دفع بزيدان السعدي لإغراء العلماء بالمال واستضافتهم هو الذي دفعه ودفع خلفاءه من بعده إلى النزلاء لا إلى الأبناء ، وإلا فأين هم أبناؤها ؟

ومهما يكن من الأمر فإن الذي يعلم أن الشيخ محمدا البوعناني الذي استقدمه زيدان من فاس قد كلف بإلقاء خمسة دروس يوميا . اثنان منهما في الفقه . واثنان في النحو وواحد في التوحيد ، وأن الذي يطلع على ما كان

---

(1) نفس المصدر السابق .

(2) قتل الوليد بن زيدان يوم الجمعة 15 رمضان سنة 1045 هـ . على يد العلوج غدرا به . الاستقصاء : ج 6 . ص 32 .

(3) مجلة البحث العلمي : س 3 ، عـد 7 ، ص 23 .

(4) نفس المصدر السابق .

(5) نفس المصدر السابق ؛ وكذلك الفهرست : ص 140 — 141 .

(6) المحاضرات : ص 142 .

(7) تقديم ديوان اليوسي : ص 19 .

تلقاه اليوسي هناك من الفنون العلمية على يد أساتذته الثلاثة الذين تقدم ذكرهم ، حيث يثبت أنه أخذ عن شيخه السكتاني مختصر السنوسي في المنطق ومحصل المقاصد في التوحيد لابن زكري (1) مع العلم بأن السكتاني هذا كان يدرس مع ذلك كتب التفسير والحديث والفقه (2) ، وأن شيخه المزوار كان يدرس هو الآخر هناك الفقه والتوحيد والمنطق (3) ، وأن اليوسي قد أخذ عنه مختصر السنوسي (4) ، وأن الفقيه الهشتوكي قد أفاد اليوسي بما قرأ عليه من مورد الظمآن في القراآت وألفية ابن مالك في النحو وتنقيح القرافي في الأصول ومختصر خليل في الفقه وكتاب القلصادي في الحساب (5) ، وإن الذي يتعرف أيضا إلى أن أساتذة العلم بمراكش جلهم غرباء عنها وجلهم من أبناء القبائل السوسية ، وأن المرغيتي (6) كان يدرس فيها الحديث والفقه والعقائد زيادة على العلوم الرياضية والفلكية ، وإن الذي يقف كذلك على ما جاء في رسالة بعض العلماء الذين ارتحلوا من فاس وحلوا بمراكش في حديثه عن وفرة طلبة فن القراآت في الحمراء (7) ، يتجلى له ما كانت تتوفر عليه مراكش من أنواع المعرفة التي لا تتجاوز ما كان يجري بفاس إلقاء وتلقينا ونوعا .

ولعلنا بهذا الذي مر بنا نقترب من الإعتقاد بأن مراكش أيضا لم يكن لها من العلم إلا حظ الإستهلاك والإجترار دون الإنتاج والإبتكار . وهي نتيجة حتمية للجو الإرهابي الذي عاشته الحمراء ، والذي جعل منها كرة تتلقفها الأيدي وتركلها الأرجل . فافتقدت بذلك ثروتها العلمية التي نزحت عنها وخلت منها البلاد .

---

(1) الفهرست : ص 140 .
(2) مجلة البحث العلمي : س 3 ، عدد 7 ، ص 23 .
(3) نفس المصدر السابق .
(4) الفهرست : ص 141 .
(5) نفس المصدر السابق .
(6) مجلة البحث العلمي : س 3 . عدد 7 . ص 24 .
(7) نفس المصدر السابق .

الزاويـة الـدلائية :

أما الزاوية الدلائية فإنها تعد بحق من أهم المراكز التي أوى إليها العلماء ومن مسه مس من تلك الأحداث والجوائح التي استدعتها الفتن آنئذ . ولعل ذلك راجع لمناعة مركزها ومنزلة رجالها وما انتهت إليه من قوة وبأس وقدرة على الدفع والقهر ، مع ما أوتي مؤسسها من حسن المعاشرة واعتدال المزاج ولين العريكة والجانب ، وحكمة التصرف وسماحة العطاء . حتى إذا ما جاء الأمير الدلائي السياسي محمد الحاج وجد كل شيء قد تهيأ له . فغزا البلاد ونشر السلطان . وأصبح الدلاء قوة هائلة في قمة سطوتها ونفوذها ، قد جمعت ما بين العلم والتشجيع عليه والترحيب بأهله والسخاء لطلابه ، وبين القوة العسكرية القائمة على الذود على حياض الدين والعمل على جمع الكلمة وردع المعتدين من الداخل والخارج .

فالمعروف عن هذه الزاوية أنها أسست على حركة صوفية قوامها نشر الطريقة الشاذلية . ثم هي بعد ذلك أخذت حلقاتها تتسع لتضم العلوم الشرعية واللغوية والأدب . فشملت القراآت والتفسير والحديث والفقه . والأصول والتصوف والتوحيد والنوقيت والمنطق ، في معالجة لأمهات الكتب من أمثال كتاب سيبويه والأمالي والمغني ، ومقامات الحريري ، وجمع الجوامع ومختصر خليل وتلخيص القزويني .

ولعل ما اختصت به هذه الزاوية من حصانة سياسية ومناعة قومية ، باعتبارها قوة بربرية نابعة من الأطلس بين الجبال والصحاري ، ومن عناية بالحقيقة ، ومما تقدمه حلقات الوعظ والإرشاد للوافدين عليها لتلك الغاية ، تذكيها الروح الصوفية الداعية لصيانة الوطن والجهاد في سبيل الله ، ومن خدمة للعلوم بطريقة أبهى وأحسن ، ومن أساتذة من خيرة مشائخ المغرب الذين جاؤوا إليها من كل حدب وصوب ، فحملوا إليها معهم طابع أوطانهم ولون بلادهم وزبدة ربوعهم ، ومن التفاف القاصي والداني بها وإقبال الخاصة والعامة عليها ، قد جعل منها منارة تضيء في وجه طلاب

العلم والمعرفة ومريدي الحقيقة والوصول ، وفي وجه أصحاب الطموح السياسي (1) طلبا للعون أو دفعا للاعتداء .

والغالب على الظن أن توفر هذا المركز على مقومات الائتلاف ودواعي شرف الإنتساب جاها وثقافة وعصبية ، قد حبب إلى اليوسي أن يتخذ منها سكنا وفيها موطنا وعندها عشا ، ولديها منطلقا لبروز شخصيته العلمية والأدبية ، ولمعان نجمه في دنيا الشريعة والحقيقة ، بعد أن قوي عوده واشتد ساعده ، وغرف من مختلف الحياض في رحلته الطويلة النشيطة أعوام الستين والألف هجرية طلبا للعلم حتى انتهى به المطاف إلى درعة ، أين التقى بشيخه في الشريعة والحقيقة ، الذي يعزو اليوسي إليه كل فضل ، مستفيدا منه ، آخذا من معينه سلوكا وتربية وتعلما وتوجيها . فطاب به المقام بعد كل ذلك في الزاوية الدلائية آمنا مطمئنا ، راضيا مرضيا ، يفيد ويستفيد .

سجلماسة :

وإذا انتقلنا إلى سجلماسة فإننا نجد مركزا علميا آخر كانت له أهمية سياسية إلى عهد المرابطين ، ثم انتعش أمره أيام محمد بن الشريف العلوى الذي حدب عليه ونشطه لعوامل مختلفة ، قد يكون منها ما في نفسه من رغبة وطموح نحو مجد سياسي وحركة ثورية تنتهي به إلى السلطة وبسط النفوذ على الربوع المغربية في محاولة لتوحيدها ولم شعثها والضرب على يد الأمراء والمضاربين في حظوظها ومقدراتها ، متخذا سجلماسة هذه مهدا للدولة المنتظرة التي جاء تحقيق وجودها وإبراز كيانها إلى حيز الوجود ، والخروج بها من القوة إلى الفعل على يد المولى رشيد ثم يد المولى اسماعيل من بعده .

فلقد وصف أبو علي اليوسي هذا النشاط العلمي هناك وما شمله من تشجيع ورعاية ، ومن دأب على التحصيل والمعرفة عجيب ، شارحا ذلك إلى

---

(1) الزاوية الدلائية : ص 159 .

السلطان اسماعيل العلوى بقوله : «ثم جاء المولى محمد بن الشريف أخو سيدنا . فأحيا العلم في بلده . وأعطى الفقهاء وأكرمهم وخالطهم . وحرر أهل البلاد للقراءة في القصبة . فقام لهم ذلك التحرير مقام العطاء . وتسارعوا حتى أن الرجل المسن من أهل سجلماسة يكتب الأجرمية (1) في لوحة يقرؤها . وكثرت المجالس وكنا هنا حتى أن أكثر الأيام لا نذوق طعاما إلا عند الإصفرار لاشتغالنا بطلب العلم وتنقلنا في المجالس طول النهار فانتفع الناس » (2). ثم يتعرض اليوسي بعد ذلك إلى وصف ما يلقى فيها من حيث النوع والأسلوب والمستوى فيقول : « ... غير أن علوم الصحراء قاصرة . إنما هي ما قرب من فقهيات ونحويات ولا يترقون إلى ذروة العلم . ولا يخوضون في لجج العلم العقلية والنقلية » (3) ، منبها إلى أن إطار البحث كان ضيقا ، وأنه يعتمد على الفروع لا الأصول في تجنب للعقليات وابتعاد عن الخوض فيها ، ومشيرا إلى المعارضة الشديدة التي لقيها علماء أصول الدين والفقه من لدن بعض أشياخ البلد (4) ؛ ليؤكد أن التلقين والحفظ والوقوف على النصوص الفقهية والحرص على متون العلم أمر مستأنس به ، مرتاح إليه ، لا يمكن تجاوزه إلى غيره ولا تجاهله بحال .

الزاوية العياشية :

وأما الزاوية العياشية فإنها رغما عن كونها لم تبلغ مبلغ الدلاء في الرواج العلمي إلا أنها قد أدت رسالتها العلمية بجانب رسالة التصوف التي أسست الزاوية من أجلها على يد محمد بن أبي بكر العياشي الذي عمرها

---

(1) الأجرومية : كتاب في النحو ينسب إلى صاحبه أبي عبد الله محمد بن محمد بن داود الصنهاجي الفاسي المتوفى بفاس سنة 723 هـ ، المعروف بابن اجروم (بضم الجيم والراء المضعفة) النبوغ المغربي : ج 1 ، ص 210 .

(2) رسالة اليوسي الجوابية : ص 15 .

(3) نفس المصدر السابق .

(4) نفس المصدر السابق .

بتلاوة القرآن وقراءة الأحزاب الشاذلية وتدريس مبادىء العلوم (1) . ذلك أن حلقات العلم لم تنتعش ولم تجد مكانها المرموق في الزاوية إلا على يد ولده أبي سالم الذي غصت الرحاب في أيامه بالطلبة المبتدئين منهم والمنتهين . فكانت تدرس فيها العلوم التقليدية التي عظم حظها في ذلك العصر ، وعم رواجها لدى كافة الأوساط المغربية ، والتي لا تتعدى ميادين النحو والحديث والبلاغة والفقه والقراءات مما ورد ذكره في كتاب « قرى العجلان » لصاحبه أحمد الهشتوكي (2) .

الزاوية الناصرية :

وإذا انتقلنا إلى زاوية تمغروت أو الزاوية الناصرية التي اشتهرت باسم من انتقل إليها (3) ، وهو الشيخ محمد بن ناصر الذي يعده اليوسي شيخه الوحيد الذي أخذ عنه العهد والورد ، وإليه ينتسب بما استفاده منه من علمي الظاهر والباطن ، ومن صحبته له وهو « العابد الناسك الورع الزاهد العارف القائم بالطريقة ، الشارب من عين الحقيقة » (4) كما وصفه اليوسي نفسه ، إذا انتقلنا إلى هذه الزاوية فإننا نكون أمام نبع علمي فياض وهام ، وأمام ثالث المراكز الذي يعتبر في نظر أهل العصر ملاذا للعلم ومجددا لشبابه ، والذي قيل عن صاحبه إنه أحد الثلاثة الذين لولاهم لانقطعت جذوة العلم بالبلاد المغربية .

ففي هذا المركز كانت حلقات التفسير والحديث والفقه والعقائد والحساب والتوقيت والعلوم اللغوية مجالا تتردد عليه الهمم واردة وصادرة .

---

(1) مجلة البحث العلمي : س 3 ، عدد 7 ، ص 35 .

(2) نفس المصدر السابق .

(3) تقع الزاوية الناصرية بتمغروت على ضفاف وادي درعة وراء الأطلس الكبير في الجنوب الشرقي من مركز زاكورة على بعد نحو 22 كلم منها . أسسها أبو حفص عمر بن أحمد الأنصاري المتوفى سنة 1010 هـ وذلك سنة 983 هـ ، إلى أن حل بها محمد بن ناصر الدرعي المتوفى سنة 1085 هـ . وذلك سنة 1040 هـ ، وآلت إليه فنسبت إليه وعرفت بالزاوية الناصرية . انظر الزاوية الدلائية : ص 57 .

(4) الفهرست : ص 157 و 158 .

وعلى هذا المركز أقبل أبو علي اليوسي بشوق بالغ جعله يتخلى عن منصب التدريس الذي أسنده إليه – بترشيخ واختيار – أمير إيليغ بتارودانت (1) لما بلغه خبر هذا الشيخ وما كان عليه من سلوك ومعرفة . فلقد ذكر اليوسي أنه قرأ على هذا الشيخ جملة مفيدة من الكتب والفنون نتعرف إليها فنتبين أهمية هذا المركز الثقافي ومدى صدق اللهجة التي تتحدث عنه بإعجاب وإكبار . فمما قرأه على أستاذه ابن ناصر هذا – علاوة على عهد الشاذلية وما سمعه من مواعظه ووصاياه – جانب من مادة التفسير ، وجملة من مختصر خليل ، والأحياء للغزالي ، والمدخل لابن الحاج ، وجزء من البخاري والشفاء وطبقات الشعراني ، وكتاب التسهيل لابن مالك (2) ، وهو الكتاب الذي أولاه شيخ تمغروت عناية خاصة في حياته التدريسية شبيهة بعناية الدلائيين بكتاب سيبويه ، حتى قيل عنه إنه كان يحفظه عن ظهر قلب (3) .

ومما ينقل عن إمام هذه الزاوية وشيخها محمد بن ناصر أن له طريقة حية وعجيبة في تدريسه للعلوم انفرد بها دون غيره من مشائخ عهده . ذلك أنه كان يراعي في تدريسه مستوى الطلبة وهو يلقي الدرس فيميز فيما بينهم بما لهم من تفاوت في درجات الدرس ومستويات التحصيل . فبينما كان يكتفي ببساطة الإلقاء مع المبتدئين ، مقتصرا لهم على حل ظاهر المتون وتقريبها دونما اشتغال بكثرة النقول والخلافات المتشعبة بين العلماء ، كان على خلاف ذلك مع المنتهين وكبار الطلبة الذين قد بلغوا مرحلة التخرج . ولعل هذه الطريقة التي كانت للامام ابن ناصر هي التي ورثها عنه تلميذه اللامع أبو علي اليوسي واستفادها منه استفادة كبرى . فلقد كان يوصيه بها وينبهه إليها حتى بعد ابتعاده عنه وانفصاله عن مجالسه بما كان يجري بينهما من مراسلات ومكاتبات (4) .

---

(1) سوس العالمة : ص 67 ؛ وكذلك طبقات الحضيكي : ص 123 وما بعدها .
(2) الفهرست : ص 143 .
(3) مجلة البحث العلمي : س 3 ، عدد 7 ، ص 36 .
(4) الدر المرصع : ص 326 .

والظاهر أن هذا المركز الثقافي لا يتعدى بكثير غيره من المراكز الأخرى ، لا من حيث الفنون المقروءة فيه ، ولا من حيث طريقة التبليغ لتلك الفنون والعلوم ، إذا ما استثنينا طريقة الشيخ ابن ناصر التي لاقت من الإطراء نصيبا بلغ حد الغلو .

ولعل لهذا الإهتمام عوامل عدة قد يرجع أهمها إلى شخصية الشيخ ابن ناصر التي تتوفر على الإستقامة والشدة والصلابة في الدين (1) . كما تتوفر على هذه الطريقة التدريسية التي قد تعد غريبة على ذلك الجيل الذى لا عهد له إلا بالأساتذة المغرمين بكثرة الأنقال والمهتمين بالجانب الجدلي اللفظي الذى لا يتغلغل إلى الأعماق غالبا . وقد يرجع أيضا إلى مركز هذه الزاوية المتاخم للصحراء ، والقائم غير بعيد عن البلاد السوسية خصوصا وأنها تجاوزت مستوى المدارس الإبتدائية المعروفة هناك إلى مستوى المعاهد الهامة التي تخرج فحولا من العلماء يتباهى بهم مغرب القرن الحادى عشر الهجرى ، والذين يعد منهم مفخرة جيله الإمام اليوسي . ولعل أهمية هذا الجانب جعلت بعض المتأخرين ينسبون إلى الزاوية الناصرية « فضل انتشار العلوم والفنون إلى تخوم الصحراء ، وفضل النهضة الأدبية التي عمت بلاد سوس في العهد العلوى كما نسب إليها فضل تفتح القرائح هناك عن أبدع ما أنتجه الفكر العربي في المغرب (2) .

إيليغ :

ثم نأتي بعد ذلك على إيليغ التي أسسها أبو الحسن السملالي لتكون بعد ذلك قاعدة للقطر السوسي وعاصمة لإمارته . فلقد أطنب الأستاذ المختار السوسي (3) في إبراز أهمية هذا المؤكز العلمي الذى استطاع أن يقف بجانب بقية المراكز الثقافية الأخرى ليؤدي رسالته في ذلك الظرف الحالك

(1) الزاوية الدلائية : ص 59 .
(2) رسالة المغرب : عد 135 ، ص 13 — 20 .
(3) سوس العالمة : ص 21 وما بعدها ؛ ايليغ قديما وحديثا : ص 81 .

من تاريخ البلاد المغربية حتى جعله من أجل المراكز التي لا تقل عما كان في مراكش أيام « قصر البديع » في حياة المنصور السعدي .

ومهما يكن من أمر هذا الإطراء فإن الذى لا شك فيه أن إيليغ وتارودانت كانتا مركزين هامين توزعا حلقات العلم والمعرفة في البلاد السوسية انطلاقا من الحركة الصوفية ، وتلبية — بعد ذلك — لمتطلبات الإمارة الناشئة الفتية التي تقتضي إقامة عناصر التكامل لدولة ساعية نحو الإنتشار والتوسع وبلوغ السؤدد والإستقلال بالسيادة .

ومن خلال العلوم التي جاء ذكرها في كتاب سوس العالمة (1) نتبين ما يمكن أن تكون عليه آنئذ هذه الحركة العلمية والأدبية ، والطابع العلمي الذى طبعت عليه أساليب التعليم والإقراء والتعلم ، وما يجتح إليه العلماء وأرباب الفكر هناك .

فلقد استطعنا أن نحصر هذه العلوم في فنون القراءات والتفسير والحديث وعلومه ، والسيرة والنحو والتصريف واللغة والبيان ، والأصول وعلم الكلام والفقه والفرائض ، والحساب والهيئة والمنطق والعروض والطب والأسانيد والجدل والأدب .

وليس من شك في أن دراسة اللغة وآدابها في هذا المركز لا تبتعد عن الطابع العام الذى عمت به العناية في ذلك العصر داخل البلاد عموما ، إن لم تكن حذوك النعل بالنعل كما يقولون . ذلك أن الأستاذ السوسي في كتابه هذا يشير إلى أن عناية العلماء والأدباء بذلك هي العناية التقليدية المحافظة التي تتمثل في حفظ أشعار القدامى ودراسة الأمهات ؛ حيث يؤكد أن العناية لديهم بحفظ المتقدمين من الفحول وكتب الأدب من أمثال مقامات الحريري كانت عناية فائقة (2) .

---

(1) سوس العالمة : ص 31 .
(2) نفس المصدر السابق : ص 66 .

ولعل هذا يكون متناسبا مع ما جاء عند الأستاذ السوسي – وهو يتحدث عن صناعة الإنشاء في تلك الحقبة – فيتخذ من فيض المراسلات التي كانت تدور بين أمراء سوس من جهة ، وبقية المتنازعين على الزعامة والسلطة آنئذ من جهة أخرى ، دليلا على أن صناعة الإنشاء مزدهرة يتخذها البارزون مفخرة يتحلون بها أمام أقرانهم .

ولا بدع إذا رأينا إيليغ البارزة قد طفحت فيها وإليها أمواج أدبية يدل عليها ما بين أيدينا من قصائد ومقطعات وقليل من الرسائل (1) . غير أن هذه الرسائل عند الرجوع إلى الكثير منها يلاحظ في غالبها ما يبدو من ظاهرة التعلق بالسجع إلى حد بعيد حتى لا تكاد تفلت منه جملة واحدة منها (2) .

هذا وإن الحركة العلمية بالقطر السوسي عموما تبدو نشيطة وإن لم تكن متعمقة . فهي حركة تعنى بنشر المعرفة في تلك الربوع عنايتها بالعلوم الدينية واللغوية حتى أنه « كثيرا ما تكون في كل قبيلة مدرسة أو مدارس متعددة إن كانت القبيلة كثيرة الأفخاذ فتبني كل فخذ مدرستها على حدة . وهذه المدارس تسمى مدارس علمية ليكون الفرق بينها وبين كتاتيب القرآن التي لا تخلو منها أية قرية وإن صغرت » (3) .

وبناء على ما تقدم فإنه يمكننا أن نستخلص أن مركز إيليغ الثقافي العلمي هو كبقية المراكز في غالب مميزاته وخصائصه . فهو يضم بين جدرانه حركة علمية ناهضة وان كانت لا تتجاوز بكثير ما كانت عليه قريناتها في المراكز الأخرى رغما عن الإطراء الذى تطالعنا به كتابات الأستاذ السوسي فيما خلفه من كتب حول القطر الذي منه انحدر وإليه

---

(1) ايليغ قديما وحديثا : ص 81 .
(2) نفس المصدر السابق .
(3) نفس المصدر السابق : ص 49 .

ينتسب ، إلا أنها على كل حال قد تبدو أكثر اتساعا وأكثر ميلانا إلى الإنطلاق والتحرر مما كان يعتري الفكر وقتها من إقبال على الحفظ وتعلق به ، وتشبث بالفروع وازوراو عن الأصول ، وممارسة لشرح المختصرات والتعليق عليها والتعقيب على ما جاء فيها ، وعناية بفك الإشارات ومعالجة التخريجات العلمية الجدلية ، وشغف بالأدب القديم بنوعيه الشعرى منه والنثري . أما الأول فيرجعون فيه إلى ما خلفه الشعراء القدامى . وأما الثاني فيرجعون فيه إلى السجع الحريرى الذي هو عندهم من أهم مصادر الأدب العربي وما انتهى إليه الذوق السليم والنبوغ المتفوق .

غير أنه مقابل هذه الخصائص التي سبق التعرض إليها لا يمكننا أن نغفل بحال ما كان للبلاد السوسية آنئذ من رجال فحول قد أمدت بهم مراكش بالخصوص فاستفادت منهم في حركيتها العلمية والقضائية كما سبقت الإشارة إليه .

وختاما فإن الذي يمكن استخلاصه مما اطلعنا عليه في مختلف المراكز العلمية التي مرت بنا ، والتي هي أهم المعاهد وأكثرها شهرة ، أن طريقة التدريس في هذا العصر ، وفي مختلف المناطق المغربية تعتمد في جوهرها على دراسة الكتب لا الفنون . وهي الطريقة التي تقتضي من كلا الأستاذ والطالب مجهودا لا بأس به لمعالجة العبارة تحليلا وشرحا واستخر اجاواعتراضا وجوابا ، أكثر من معالجة الفن نفسه مما يورث مقدرة كلامية وذهنية تحليلية جدلية لا يمكن التقليل من جدواها والغض مما ترجع به على صاحبها من فصاحة في الحوار وتمكن من اللغة ، ومقدرة على أساليب التعبير وتمرس في الجدل ، ومرونه على الطريقة المنطقية التي تتوخى كثيرا التدقيق في العبارة والتحرى في المناظرة ، إلا أن لها جوانب ضعف من أبرزها صرف المجهود أو الكثير منه عن جوهر الفن والغوص في عناصره واستكمالها والتوفر عليها والتمكن منها ، مما قد يساعد على التقدم العلمي بحثا وتنقيبا وجمعا وتنظيما واستيعابا . وهو ما لا يمكن أن يكون مع العناية بالتراكيب وحل غموضها أكثر منها بأصول الفن وما تنتهي إليه من كشف أسرار المادة والتقدم

بها إلى أبعد مما تركها عليه الأسلاف والفحول من أصحابها . وهو ما خلت منه الغالبية المطلقة من مؤلفات ذلك العصر فلم تطالعنا به آثاره التي تمكنا من الإطلاع عليها .

بقيـة المـراكز :

أما إذا ما تجاوزنا هذه المراكز التي تعرضنا إليها بالحديث إلى غيرها من المراكز الأخرى وجدنا أنفسنا أمام مجموعة من المراكز لا تبلغ شأو السوابق ولا تتجاوزها في الروح الثقافية والمواد العلمية ، بل لا تلحقها ولا تقترب منها . فهي عبارة عن مراكز للثقافة الدينية وتحفيظ مبادئها وأولياتها . مهمتها الأخذ بيد المبتدئين ، والمساعدة لمن حدثته نفسه بالتخرج على ما هو متعارف عليه في ذلك العصر فتعده للحاق بما هو أعلى منها شأنا وأوسع دائرة ، وأكثر نشاطا وأبعد تعمقا وأرقى درسا (1) .

خـاتمـة :

هذا ، وانطلاقا مما تقدم ومما ساعدتنا الظروف على الإطلاع عليه مما كتب حول هذا العصر في الجانب الثقافي ، أو ما تركه لنا أصحابه ووقفنا عليه من الآثار الشعرية والنثرية المتنوعة الأبواب والأغراض التي ما زال الكثير منها مخطوطا وموجودا في الخزانات المغربية الخاصة والعامة خصوصا منها قسم الوثائق من الخزانة العامة بالرباط ، نستنتج أن الفضل كل الفضل في حفظ المعرفة بالبلاد المغربية في ذلك العصر على الأقل فيما يظهر ، يرجع أكثره إلى حركة الزوايا والطرق القائمة — عن صدق — على الدعوة الصوفية وخدمة الدين التي تدعو إليها الحالة العامة بالبلاد . وأن القوم

---

(1) مجلة البحث العلمي : س 3 ، عد 7 ، ص 25 ، 26 ، 28 ، 29 ، 31 ، 32 ، 33 ، 37 ، 39 ، 43 .

اعتمدوا في ذلك على الطريقة الشاذلية (1) الجزولية (2) الجنيدية (3) وأن الإعتماد في النشاط العلمي والإنتساب إليه قائم على الذاكرة وما تستوعبه من نصوص ومحفوظات أكثر من الإعتماد على الرأي والإجتهاد والتصرف. فلقد تفشت آنئذ الرغبة في حفظ المتون والنصوص في كل فن، كما سادت حركة الجدل اللفظي والتخريجات والتمحلات البعيدة عن العمق في النظر الذي يعتمد أكثر ما يعتمد على الفكر والعقل وما يتولد عنهما من طاقة التصرف والإبتكار، والذي لا يعتمد كل الإعتماد على الحفظ والذاكرة وما في ذلك من الإهتمام بالجمع وكثرة النصوص والوقوف معها دون تخطيها إلى ما هو أبعد وأجدى وأنفع. كما أنه قد تبعت هذه الحركة حركة أخرى قوامها صناعة النثر القائم على السجع حينا، وعلى الأسلوب العلمي الغير الفني حينا آخر. وقوامها أيضا صناعة الشعر القائم حينا على الأغراض التقليدية التي تخلو من الروح لما فيها من تقليد للقدامى بما لا يخدم عواطف الشاعر ولا طموحات المجتمع ولا الاحداث داخل المجتمع، وإنما دعته الرغبة في مسايرة للفحول من معان وتقليدهم فيها ولو لم تكن مغربية المنبت والمنشأ. كما أنها تقوم حينا آخر على الشعر التعليمي والنظم الجاف الذي جاء ليلبي رغبة المتصوفة والطرقية في الأمداح النبوية الخالية من الإبداع الفني والجوانب الشعورية الرقيقة، وكذلك في الأدعية التي تخدم ما يناسب حلقات الذكر وتجمعات المنتسبين. فتسهل على المريدن حفظ تلك الأدعية وسهولة أدائها عند الحاجة كما توفر الأشعار التعليمية على الطلبة مشقة حفظ الفنون وضبط القواعد والشروط والأركان.

وغير خاف أن أهم المراكز العلمية الذي له فضل كبير على المغرب في هذا العصر بالذات وأكثرها بروزا وظهورا هو المركز الذي احتضنته

---

(1) نسبة إلى أبي الحسن الشاذ لي المولود بقبيلة عمارة قرب سبتة من المغرب الأقصى سنة 593 هـ. والمتوفى بصعيد مصر في سفره إلى الحج سنة .. راجع الزاوية الدلائية : ص 49.

(2) نسبة إلى الشيخ محمد بن سليمان الجزولي صاحب كتاب دلائل الخيرات، المتوفى مسموما سنة 870 هـ. نفس المصدر : ص 48.

(3) نسبة إلى الامام أبي القاسم الجنيد، المتوفى سنة 277 هـ، نفس المصدر : ص 48.

الزاوية الدلائية التي لعبت دورا هاما في الحياة العامة في البلاد سواء منها السياسية والثقافية . وغير خاف ـ كما سبق ـ أن هذا التمزق السياسي الذي كان على يد السعديين لم يستطع أن يحدث تصدعا في وحدة الإتجاه الثقافي وتلوين الحركة العلمية بأصباغ مختلفة بقدر ما أدى إلى تفكك أوصال البلاد تفككا كاد يودي بالبلاد المغربية ويقضي عليها كما قضى على الأمبراطورية التي صنعها المنصور الذهبي وتركها مستقرة ومتلاحمة ، فلم يستطع أن يحافظ عليها ورثته من بعده فتصدعت وذهبت شذر مذر حتى كانت الدولة العلوية التي منحها الله قوة مكنها بها من إرجاع المياه إلى مجاريها وضم أشلاء البلاد إلى بعضها لتتوحد سياسيا وتنطلق ثقافيا .

المغـــرب المتصـــوف

لمحـة تاريخيـة :

لقد عرف المغرب الأقصى حركة الرباطات والزوايا حتى عرفت به . وهي الحركة التي تقمصها التصوف في مراحله الأولى التي عرف بها الشمال الإفريقي بصفة عامة ؛ إذ من المعلوم أن هذه الحركة قد استوردها المغرب من المشرق فانتقلت إليه منذ عهد المرابطين ، وأنها قد عرفت فيه أطوارا عديدة عبر العصور استطاعت بها أن تواكب حركة المشارقة في فلك الطاعة والعبادات والإقبال على الله بذكره وتلاوة كتابه والتقرب إليه ، وأن يكون لها من الأقطاب أمثال الشيخ أبي الحسن الشاذلي والشيخ عبد السلام بن مشيش قطب المغرب ، مقابل ما كان للمشارقة من أقطاب أمثال الشيخ عبد القادر الجيلاني (1) الذي يعتبر عند أرباب القلوب ورجالات التصوف قطب المشرق بلا منازع ، وأنها في أول عهدها كانت بسيطة لا بدعة فيها ولا انحراف . حتى تلقفها الزمن فأصبحت في نظر الكثيرين عنوانا للانحراف والجمود بما أضافه إليها المبتدعة والمشعوذون حسب الغايات والمصالح .

---

(1) الشيخ عبد القادر الشريف الحسني المعروف بالجيلاني المتوفي ببغداد سنة 561 هـ . انظر الزاوية الدلائية : ص 63 .

ومعنى ذلك أن هذه الحركة قد عرفها المغرب منذ أن بدأت بشمال إفريقية في شكل مزارات لأجداث من رافق عقبة بن نافع إليها من الصحابة والتابعين يزورونهم التماسا للبركة من أصحابها الذين سقطوا في حروب الفتح (1) .

ولقد قامت هذه الحركة بادىء ذي بدء على تعليم القرآن للطلبة وقراءته . ثم توسع نشاطها نسبيا حتى عرف الصوفية فتميزوا عما سواهم بكثرة العبادة وتلاوة القرآن وسرد المأثور من الأدعية المقتبسة من الآثار الواردة أو من القرآن الكريم كالتي نجدها في حزب الفلاح مثلا للشيخ محمد ابن عبد السلام الجزولي (2) وفي أحزاب الإمام الشاذلي رضي الله عنه عموما (3) . وهي التي تتألف مطالعها من آيات الذكر الحكيم .

وبقيت هذه الحركة هكذا نقية صافية لا تبعد عن الجو السني في شيء إلى القرن الثامن الهجرى الذى عرفت بعده شيئا من الإنحراف والشذوذ بانتساب الأدعياء والمتحلين للمذهب الصوفى . حتى استفحل أمر هؤلاء في القرون المتلاحقة إلى القرن الحادى عشر الهجرى الذى يهمنا أمره ، والذى تعرض فيه التصوف بالمغرب الأقصى إلى الإفتيات والدجل من طرف من كان همه عرض الدنيا والمصالح القريبة (4) .

وإذا كانت هذه الحركة قد عرفت في المشرق إزاء الجانب العملي منها الجانب النظرى الذى استبد بالباحثين والدارسين وألهاهم كثيرا عما سواه بما كان له من طغيان على الجانب العملي تحولت معه إليه في جانب مهم من متعلقاتها ، وهي الحركة التي سداها في الأصل العبادة كما هو معلوم ، ولحمتها الأعراض عن الدنيا إلا بمقدار ما يقيم أودها وما يحتاجه

---

(1) مجلة البينة : س 1 ، عد 6 ، ص 60 — 61 . المغرب
(2) الزاوية الدلائية : ص 48 ، وانظر حزب الفلاح في الزاوية الدلائية : ص 275 .
(3) نفس المصدر : ص 49 ؛ وانظر تعريف الحزب في الزاوية الدلائية . ص 61 .
(4) مجلة البينة : س 1 ، عدد 7 ، ص 90 .

المرء منها دونما ترف ولا بذخ ولا استهتار ، فإنها في المغرب ، بالعكس من ذلك ، لم تعرف سوى الجانب الأول منها الذى اشتغل القوم به عما سواه من الجانب النظرى . حتى أصبحت هذه الحركة بالمغرب مع ما أدخل عليها مما ليس منها تكاد لا تعرف إلا به ولا تشير إلى سواه ، وحتى أننا لا نستطيع أن نعثر على أثر للجانب الثاني الذى هو الجانب النظرى إلا شيئا يسيرا لا يعبأ به ولا يؤلف من المذاهب ما صنعه بالمشرق . وما أسس منه مما يمكن أن يسمى بعلم التصوف وما يشتمل عليه من نظريات فلسفة وأبحاث نظرية لا تبعد كثيرا عما للمذاهب الشرقية الغير الإسلامية من سلوك وأحوال ورياضات عقلية .

نعم . لقد عرف التصوف في المعرب بعد قرون قليلة من انتشاره داخل ربوعه نشاطا اجتماعيا وتعليميا ثم سياسيا بما فرضته على أصحابه الحالة العامة التي صارت إليها البلاد ، فخدمت كثيرا من الرجال وساندت قيام بعض الدول ، ودعمت الحركة الإصلاحية في بعض وجوهها حفاظا على مقومات المجموعة الإسلامية هناك ، ودفعا ليد العابثين والمعتدين عليه حتى تحفظ البلاد وتصاف حرمتها ، وحتى تكون الكلمة للمغاربة في حدود دينهم وإعلاء كلمته ورفع رايته .

نعم . إذا كانت لهذه الحركة هناك في المشرق هذه الأبعاد الفلسفية الدينية التي تولدت عنها مذاهب ونظريات عقائدية تقترب حينا وتبتعد حينا آخر عن الإتجاه الديني السليم الذي عرف الكتاب والسنة منطلقا له في صفائهما وبساطتهما كما كانا عليه في العهدين الأولين ، عهد صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام وعهد خلفائه الراشدين من بعده ، وكما كانا عليه قبل قيام حركة التلفيق . في محاولة للتوفيق بينهما وبين ما هو موجود عند الفلاسفة والمذاهب الدينية الأخرى ، فكانت حركة فكرية عقائدية تخدم النظر وتغذى الفكر ويغذيها ، وكانت أيضا حركة دينية تقوم على العبادة والأوراد والأذكار في أنظمة خاصة ابتدعها أصحابها ومشائخها ليعتمدها أتباعهم فيعرفون بها ، وتتسع حلقاتها وتتعدد بهم .

إذا كان لهذه الحركة هناك هذا الطابع المتقدم الذكر فإنها في المغرب طبعت بما يغاير ذلك ويبتعد عنه ، خصوصا في جانبها الفلسفي الصوفي القائم على الإتجاهات المغالية التي تبتعد شيئا فشيئا على العقيدة الصحيحة وتقترب أكثر فأكثر من الديانات والاتجاهات الفكرية التي عرفها المشرق العربي وليس لها أصل في المغرب الأقصى ، فاتجهت فيه بمقتضى ذلك اتجاها أوسع وأبعد وأسلم في الكثير من مظاهره حتى امتدت إلى الحياة العامة منه فغذت الحركات القومية في البلاد ، وخدمت الدعوات السياسية بها حتى قامت على سواعدها دول واحتضرت تحت معاولها دول أخرى . علاوة على ما كان لها من خدمات لصد عدوان الغزاة والمعتدين من النصارى الذين تولد لهم شره خطير نحو ما كانوا يحلمون به من محاولة الإستيلاء على البلاد المغربية وسواحلها بعد أن وقفت هذه الأخيرة في وجوههم تصدهم عن الأندلس زمنا ليس بالقصير .

وهي حسنة من الحسنات الخالدة أسدتها هذه الحركة في هذه الربوع من الأندلس والمغرب في ظرف تلبدت بسمائه السحب ، وغبرت آفاقه الزوابع والعواصف فاستطاعت حركة التصوف هذه في قواها الصامدة أن تخدم البلاد خدمة كبرى مازالت سطورها تملأ صفحة التاريخ الإسلامي في الجناح الغربي من البلاد العربية ، وتشهد على ما قدمه أهلها من بطولات .

أضف إلى هذا الذي تقدم ما كان لهذه الحركة بالبلاد المغربية أيضا من نشاط تربوي تثقيفي تلقيني ، تتمثل فيه صيانة العلم وخدمته من جهة ، كما تتمثل فيه الدعوة الواسعة للاقبال على الإطلاع على الشريعة والتمسك بها ، والإقبال أيضا على العبادة وإصلاح ما فسد من المجتمع ، سواء كان ذلك الفساد في هياكله الإدارية أو مجموعاته البدوية منها والحضرية ، تطهيرا للأخلاق وتيسيرا للمعاملات من جهة أخرى . وهو عمل جليل أيضا لو لا أنه قد نالت منه العناصر المنتسبة إلى الزوايا ، والتي اندست في صفوف هذه الحركة فلوثت من صفحاتها الناصعة ، وأفسدت عليها ما عرفت به من خدمات صادقة للدعوة إلى الدين ، والإقبال على الطاعة ، والترغيب في عبادة الله وإعلاء كلمته .

وعلى كل حال فإنه إذا كانت لهذه الحركة أصول شدت بالأرض هناك منذ العهود الإسلامية الأولى في المغرب عرفت فيها نشأتها به ، فإن لها جذورا تفرعت وانتشرت فيما بعد انتشارا واسعا ، وأخذت تتبين معالمها وتظهر واضحة بالخصوص عندما عجز الوطاسيون عن الامساك بزمام الأمور والوقوف في وجه الأجانب لحماية الشواطىء المغربية من إغارة البرتغاليين وصد عدوانهم فأرست قواعد الدولة السعدية وساندتها مساندة تساعدها — لو أسعفتها المقادير ولو باليسير من الإستقامة — على جمع الشمل وحماية الوطن ورد الإعتبار له ، واشتد نشاط الزوايا بتوفر دواعيه إثر وفاة المنصور السعدي ، وذلك بانحلال العرى وتصدع الصفوف وضغط التدخل الأجنبي ، واستسلام أصحاب السلطة له مع تساهل في حقوق البلاد والعباد على يد أبنائه من بعده . وبذلك جمعت هذه الحركة في المغرب الأقصى بين الميدانين الهامين في حياة الأمم : الميدان السياسي الزمني ، والميدان الروحي الديني .

وهكذا ينبثق من هذه الحركة — حركة الطرق والزوايا — المرابطون فالموحدون . كما تقوم على نصرتها وعصبيتها دولة الأشراف السعديين الذين تنكر البعض من سلاطينها لها ، وفي أواخر أيام دولتهم بالخصوص ، وذلك لما هزتهم وعدة الأنانية وضايقتهم تلك الحركة نفسها التي لم يرضها سلوكهم ، والتي لم تنم لها عين على انحرافهم وميلهم عن الوطن وزيفهم عن الدين فيما بعد . فضايقوها كما ضايقتهم وشددوا عليها الخناق توفيرا لراحتهم ، وأملا في الإبقاء على مصالحهم .

فليس غريبا بعد هذا أن ينشط مشائخ الطرق والزوايا . وأن يتوزعوا البلاد وينتشروا هنا وهناك كما توزعوا سواحلها والمناطق المهددة منها بغارات الأعداء أيام إقامتهم للرباطات وإقامتهم فيها للعبادة وتلاوة القرآن ومدارسة العلوم من جهة ، ولحراسة الحدود ورد غارات المعتدين وردع العابثين والدفاع على حوزة البلاد وسيادتها من جهة أخرى . غير أن حركة الزوايا المنبثقة في غالبيتها عن حركة الرباطات والمعتبرة امتدادا لها ، لم تجد في كافة عناصرها أواخر أيام السعديين ما كان قبل في غالبية العناصر

قبلها . ولذلك نجد هؤلاء المشائخ ينشطون في هذا العصر . البعض منهم عن صدق نية وسلامة طوية ، والبعض الآخر حبا في السلطة وجريا وراء المتعة والجاه أو رغبة في الإفساد وصرف الهمم عن الأهم وبث الفوضى والشغب . فظهرت بمقتضى ذلك عدة زوايا . كما ظهر في جانبها رجال عديدون وقع افتضاح الكثير منهم في مناطق عديدة من البلاد وفي مواطن صحراوية مختلفة ، بعد أن غرروا بالناس خاصتهم وعامتهم ، وبعد أن فتنوا البسطاء منهم أو كادوا (1) . أثبت لنا اليوسي من هذا القبيل نماذج عديدة في كتابه المحاضرات .

ومن أبرز هذه الزوايا التي كثر الحديث عنها ، وعن صدق أصحابها وسلامة سلوكهم ، وعما أدته من خدمات علمية ودينية فاحتضنت حلقات العلم بجانب حلقات الذكر : الزاوية الدلائية ، والزاوية الناصرية ، والزاوية الفاسية والزاوية العياشية .

وهذه هي الزوايا التي نحاول التعرض إليها بحديث موجز يعرف بها ويكشف عنها في نشاطها الذي قامت به في المرحلة التي نحن بصدد الحديث عنها ، والتي لا تتعدى القرن الحادي عشر الهجري والسابع عشر الميلادي .

ولعلنا بموجب هذا الذي ذكرنا نجد أنفسنا مضطرين للوقوف على ثلاثة عناصر هامة في معرض حديثنا على بقية مظاهر التصوف في هذا العصر التي نجد اليوسي قد تعرض لها موزعة في كتابه هذا بدون أن يعزوها إلى زاوية معينة ولا إلى انتساب معين ، إلا ما جاء عفوا ودونما قصد إليه ، حتى نستكمل الجوانب التي لا بد منها في نظرنا لضبط موضوعنا هذا أو أن نقارب استكمالها على الأقل .

هذه العناصر الثلاثة هي :

أولا : التفكير الديني والصوفي ومظاهر ذلك داخل الإطار الإجتماعي بصفة عامة . لا فرق في ذلك بين الخاصة والعامة .

---

(1) الزاوية الدلائية : ص 56 .

ثانيا : أبرز الزوايا ومنهجها في طريق القوم . وهي الزوايا التي ذكرنا أننا سنفردها بالتعريف بها وبأنشطتها ، خصوصا وأن منها ما كان لليوسي صلة بها أو شبه انتساب لها ، وقد جاء ذكرها أو الإشارة إليها فى كتابه المحاضرات .

ثالثا : مسلك أبي على اليوسي الصوفي علما وعملا وتفكيرا . وهذا العنصر الثالث قد يعطينا بمساعدة سابقيه الطابع العام الذي عليه بعض العلماء الذين لم يرتبطوا ارتباطا وثيقا بزاوية أو طريقة معينة ، سواء كان لهم حنين إلى إحداها ، أو لهم عطف وشبه انتساب إلى حضيرتها ، أو ليس لهم لا هذا ولا ذاك وإنما لهم روح صوفية لا علاقة لها بالطرق والزوايا غير أنهم مجذوبون إلى هذا الجو بموجب الحالة العامة أو بموجب الروح الدينية المسيطرة على علماء الدين وفقهاء الشريعة في هذا العصر ولم يتمكن منهم الطمع ولا التشوف ولا الإشرئباب إلى بلوغ المناصب واكتساب الجاه ولا التعلق بالمتاع .

وهذا العنصر الثالث هو الذي ذكرنا في التمهيد أننا سنخصص له فصلا مستقلا بعنوان « اليوسي المتصوف » .

التفكير الديني الصوفي داخــل الاطــار الاجتماعي

سذاجة الاعتقاد والتبرك :

يبدو أن الحياة العامة ، خصوصا ما كان منها خارج المدن الكبرى ، قد استبدت بها المشاعر الدينية المتأثرة بأجواء الزوايا والطرق ، وبما توحي به من تعلق بالصالحين ، وتمسك بالإنتساب والتربية وكل ما له صلة بحلقات الذكر ومجالس الصوفية في بساطة وسذاجة وتسليم دونما إجهاد فكري واع ونظر عقلي صحيح ، ودونما تثبت واستيعاب لما يتناسب مع الدين فيقبل ، وما قد يجافيه فينبذ ويطرح .

يتجلى هذا فيما نقله اليوسي عن بعض المناطق الصحراوية التي أقام هو فيها ، والتي خالط أهلها واطلع على دخائلهم وعاداتهم وتقاليدهم . فمن ذلك أن أهالي سجلماسة مثلا ، عندما ظهرت في جهتهم شجرة خضراء منعزلة عن البلد ومنفردة بين أشجارها بنوعها ومنبتها وعدم النظير لها ،

استغربوا أمرها واتخذوها مزارة للتبرك « ... ولا سيما النساء . فيكثرون عليها من تعليق الخيوط . ويطرحون الفلوس أسفلها . وربما تغالت النساء في تعظيمها والتنويه بشأنها حتى يسمينها باسم امرأة صالحة كالسيدة فاطمة ونحو ذلك ... » (1) . وقريب من هذا الذي لاقته الشجرة

---

(1) المحاضرات : ص 36 .

الخضراء من تقديس وتعظيم من سكان سجلماسة ما لاقته شجرة أخرى وكدس من حجر يقال له البقرة بالقرب من ناحية مقام الشيخ أبي يعزى (1) .

فهذا الذي نقله لنا اليوسي في كتابه هذا عما يجري متشابها داخل المجتمع في موضعين مختلفين يدل بوضوح على أن ظاهرة التبرك بالصالحين ومزاراتهم ظاهرة شعبية يتحمس لها الناس ويتوارثونها ويقبلون عليها حتى ولو كانت هذه المزارات مجرد أشياء غريبة من شجر وحجر وما شابههما مما لا أصل له إلا ما أثبته الوهم المتولد من تقليد البعض للبعض من أن هناك بركة يسعى إليها أو صلاحا يلتمس الخير منه . ومن هنا قد يكون الوهم كافيا لبذل المال والتمسح بالكائنات رجاء التبرك ونيل الثواب والأجر .

والظاهر أن العلماء في سجلماسة يبدو عليهم أنهم لم يجدوا ما يساعدهم من الإمكانيات التي لا بد من توفرها للاقدام على تبديد هذه الأوهام من العوام بالكشف لهم عن أمر هذه الشجرة وما شاكلها ، وإقناعهم بالإقلاع عن التمسح بما لا يسمع ولا يبصر ولا يعقل ولا يغني شيئا ، وبالإنصراف إلى ما هو أجدى وأنفع . فإنها شجرة لا تضر ولا تنفع . وهي — علاوة على ذلك — كائن من الكائنات لا حول له ولا طول ، ولا شعور ولا إدراك ولا إرادة . فمن أين لها هذه البركة المرجوة . التي لا تكون إلا فيمن ثبت صلاحه وترجحت تقواه من المكلفين الذين ارتقوا بإيمانهم إلى سنام الكمال النسبي الذي به يكون الإنسان من أولياء الله الصالحين المقربين الذين تتنزل الرحمات عند ذكرهم ، كما ذكر اليوسي وأثبته في مستهل خاتمة المحاضرات (2) .

---

(1) نفس المصدر السابق .

(2) فلقد ذكر أول الخاتمة قوله : « خاتمة أسرد فيها من حضر الآن في فكري ممن لقيت وتبركت به ممن أتسم بالخير واشتهر بالصلاح تبركا بهم؛ فانه قد قيل: »تتنزل الرحمات عند ذكر الصالحين . وقال القائل: « أسرد حديث الصالحين وسمهم . فبذكرهم تتنزل الرحمات واحضر مجالسهم تنل بركاتهم . وقبورهم زرها إذا ماتوا » . المحاضرات : ص 255 .

وهذا التبرك ، علاوة على ما فيه من التماس الثواب بمحبة المقربين ، لا يتجاوز معناه في الحقيقة إيقاظ المشاعر للاقتداء بهؤلاء الذين هداهم الله وامتثلوا أوامره وتجنبوا نواهيه واتبعوا رضوانه ، ولا ما لا يبتعد عن هذه المعاني التي تفيد المتعظ تزودا بعمل الخير وانتهاج طريق الصلاح في الدارين . وليس منه ذلك الإعتقاد في أمثال الحجر والشجر الذي هو في واقع الأمر لا يبتعد بصاحبه كثيرا عن مستوى الإشراك بالله بموجب ما يلاحظ فيه من اعتبار أن هذا الذي ينسب له الصلاح والولاية يضر وينفع وأن له الحول والطـول .

والغالب على الظن أن هؤلاء العلماء لو فعلوا أو أمكن لهم أن يفعلوا هذا الذي أشرنا إليه ، ولو أنهم اتجهوا في حركتهم الدينيـة الإصلاحية الوعظية إلى التوعية الدينية الحقة ، وإلى إنارة العقول وشرح الدين بما يناسب العامة مع تلقينهم ما يجب عليهـم من أمور العبادات التي أفردوها في ذلك العصر بالعناية وحدها دون سواها مما جاءت الإشارة إليه في التوعية المدعو إليها آنفا ، ولو أنهم أيضا انصرفوا بمجهوداتهم نحو التربية القائمة على الدين الذي هو العنصر الهـام في حياة الفرد العملية وعلاقاتـه الإجتماعية وغيرهـا ، وهو ما ينتهـي بصاحبه إلى الوقوف على ما لا يبتعد أن يـكون المقصد الشرعي فيما تبعدنا الله به ، لما انتهت حالة العامة إزاء تلك الشجرة ونحوها إلى ما انتهت إليه ، مما حرك أحد العلماء منهم ، ولعله كان أكثر شجاعة منهم وأبعد تحررا من بقيتهم ، وهو الأستاذ أبو زيد عبد الرحمان ابن يوسف الشريف ، إلى أن يأمر طلبته بقلعها وإبعادها عن طريق سلامة الإيمان وصفاء العقيدة بعد أن أهملت السلطـة والخاصة من الناس أمرها وترك في شأنها الحبل على الغارب كما يقولون (1) .

والذي يبدو أن هذه الحالة من التعلق بالأوهام أو ما لم يثبت فيه على الأقل ما يشير إلى معنى شرعي ، ليست خاصة بسجلماسة ولا بما كان قريبا من مقام الشيخ أبي يعزى . فلقد حدثنا اليوسي أيضا في كتابه هذا عما لاحظه

---

(1) المحـاضرات : ص 36 .

في بلاد المصامدة ، وخصوصا بلدة رجراجة ، وليس بعيدا عما ذكره في غيرها بما قال فيه : « ورأيت في بلاد المصامدة وخصوصا بلد رجراجة من هذا كثيرا بقي عندهم موروثا خلفا عن سلف عندما يدورون على صلحائهم زائرين ... وفي بلاد المغرب مواضع اشتهرت بآثار الصالحين ووقع التغالي فيها . منها شالة في رباط سلا فلا يعرف لها إلا أنها مزارة يزورها الناس ويتبركون بمن فيها ... » (1) .

الإقبال على مدعي الولاية :

ومما هو جدير بالملاحظة أن هذه الظاهرة في الحياة الدينية لدى معاصري اليوسي لم تقف عند التعلق بالجماد أو النبات أو غيرهما مما يتوهم أن له مساسا بالصلاح المعتمد فيه عندهم آنئذ على ما وردت آثاره وأخباره عن القدامى مما تحول إلى مطاوي التاريخ وتناقلته الأجيال ، بل تجاوزت ذلك إلى أن صارت ظاهرة خطيرة يتلبس بها الناس ، بدون فارق مستوى ، تتمثل في الإقبال على كل ما شاع اتسامه بالصلاح والولاية من كل طارىء أو كل من قيل عنه إنه صاحب الوقت أو غير ذلك حسبما يخطر ببال البعض منهم وهما وتخيلا . فيقبلون على هؤلاء بدون سابق تمحيص لهم ، ولا تدقيق في سلوكهم ، ولا اختبار في أعمالهم ، ولا سبر لما نقل عنهم ولا سابق تجربة وخلطة لهم من الناس . تلك الخلطة التي كما لا يخفى هي أدنى ما يمكن أن يكون لقبول التعديل والتجريح في من يشهد في أمر من الأمور الدنيوية فضلا عما يتعلق بالجانب الروحي الأخروي ، فيعتقدون فيهم الولاية والصلاح والتقوى مكتفين في ذلك بما يروج بين الناس من دعاوي وأقاويل لا سند لها من الصحة ولا دليل كما أسلفنا .

فلقد تورط في القريب مما مر بنا — مع كامل السذاجة والبساطة — أهالي سجلماسة من طلبة العلم ومن أمير البلاد نفسه آنئذ فضلا عن عامتهم الذين لا يستغرب منهم الوقوع في أكثر من الذي وقع فيه علية القوم وصفوتهم .

---

(1) نفس المصدر : ص 37 .

ذلك أن أبا علي اليوسي نقل لنا شيئا من ذلك بلهجة المتحسر عما فرط منه ومن غيره في يوم من الأيام بسجلماسة . فذكر أنه كان في زمرة من تزاحم بالمناكب على رجل غريب ظهر في المدينة الخالية من سجلماسة هذه ، وشاع أمره بين الناس فتوسموا فيه الصلاح بما راج له من شائعات بينهم . « فأصبح الناس يهرولون إليه أفواجا وخرجنا مع الناس . فقائل يقول : ولي من أولياء الله . وآخر يقول : صاحب الوقت . فلما بلغنا المدينة وجدنا الناس قد اجتمعوا من كل ناحية على ذلك الرجل . حتى أن أمير البلد وهو محمد ابن الشريف خرج في موكبه حتى رآه . فلما كثر الناس واشتد الزحام عليه وتعذرت رؤيته فدخل في قبة هنالك في المقابر . فأخرج كفه من طاق في القبة . فجعل الناس يقبلون الكف وينصرفون . وكان كل من قبل الكف اكتفى ورأى أنه قضى الحاجة فقبلناه وانصرفنا ... » (1) .

وهكذا يتحدث اليوسي عن واقعة شارك فيها بنفسه واغتربها في زمرة من اغتر بوقائعها من أهل تلك الناحية . ولم يسلم من حبائلها أحد « ... حتى أن امير البلد محمد بن الشريف خرج في موكبه حتى رآه » . ثم بعد سرد اليوسي للقصة ينقل لنا أن الأخبار تناقلت ما كان من أمر هذا الرجل بعد أيام و« أنه ذهب إلى ناحية الغرب وأنه سقط في بئر هنالك ومات . فظهر أنه رجل مصاب وكان يشتغل باستخدام الجان ونحو ذلك فهلك » (2) .

ولعل اليوسي أراد أن يشعرنا بأن هذا الذى حصل له ولغيره لم يكن أمرا غريبا ، ولا هو من الحوادث النادرة التي لا تتجدد ولا تتكرر . بل هي مما اشتد حدوثها عند المغاربة في غير ما مكان في ذلك العصر مما شجع المبطلين والعابثين على أن يستهتروا بالمقام الديني ويستخفوا بعقول الناس فنقل لنا في كتابه هذا حادثتين أخريين شبيهتين بالتي قبلها .

والراجح الذى لا إخاله إلا صوابا أن الرجل حينما أورد ذكر هاتين الحادثتين هنا لم يغب عن ذهنه أيضا التلميح لبيان مدى المبالغة التي عليها

(1) المحاضرات : ص 38 .

(2) نفس المصدر السابق .

قومه في الحفاوة بالمنتسبين والفقراء ولو كانوا طارئين عليهم ، معتمدين في تسليمهم بصدق ما هم عليه من المظاهر الخيرة على ما يدور على الألسن في شأن صلاحهم وتقواهم . كما أنه لم يغفل الإشارة إلى سلامة الطوية التي عليها القوم والتي تقابل خبث النفس وخساسة الضمير التي عليها أولائك المستغلون المروجون للضلالات والمتلبسون بالأباطيل .

أما إحدى الحادثتين فقد جرت مسرحيتها في جبل من جبال هسكورة اين نزل على الجهة رجل من ناحية الغرب اشتهر بالصلاح « وأقبل الناس عليه بالهدايا والضيافات . وكان من أهل البلد فتى يختلف إليه ويبيت عنده . فاستراب من أمره بعض الطلبة . فتلطف مساء ليلة حتى ولج الخباء فيكمن في زاوية منه . فلما عسعس الليل قام المرابط إلى الفتى واشتغل معه بالفاحشة . نسأل الله العافية » (1) .

وأما ثانيتهما فقد جرت أطوارها في سجلماسة مرة أخرى ، حيث جاءهم رجل « واشتهر باسم الصلاح ووقع الإقبال عليه . فكان يأتيه الرجل فيعده بأن يبلغه إلى مكة ويحج به طرفة عين . واستمر ذلك مدة . ثم قام نفر من الأشراف . واتفقوا على اختباره . فكمنوا قريبا منه . وتقدم إليه أحدهم وعنده نحو خمسين مثقالا . فقال له : يا سيدى ! إن هذه الصلاة تثقل على . فعسى أن ترفعها عني . وأفرغ تلك الدراهم بين يديه . وكأنه هش لذلك فبادره الآخرون قبل أن يستوفي كلامه . وأوجعوه ضربا وطردوه . ثم بعد مدة سافر بعضهم إلى ناحية الغرب . فمر بعين ماء هنالك . فإذا الرجل عندها يستقي قربا له منها . وإذا هو يهودي من يهود معروفين هنالك . نسأل الله العافية » (2) .

فأمثال هذه الحوادث التي يظهر أنها لم تختص بناحية دون أخرى – كما يبدو – وأنها منتشرة وكثيرة (3) ، توحي بأن في الناس شوقا للصالحين ، ومحبة بالغة فيمن تظهر عليه مخايل التصوف والولاية . فهم يريدون أن يتقربوا

---

(1) المحاضرات : 38.

(2) نفس المصدر السابق .

(3) نفس المصدر السابق .

ويتبركوا بهذا الصنف من الناس مهما كانت الظروف والملابسات كما يظهر من منطوق أحوالهم . أفهل لا يكون هذا حصاد ما انتشر من فوضى وفساد ، حتى أصبحت النفوس عطشى لاهثة تتلهف لمن يسعفها ويأخذ بيدها ، وينتشلها من مخالب الأجنبي من ناحية . ومن الفراغ الباطني والقلق النفسي الناجمين عن اختلال الأمن والإضطرابات الداخلية وما يتبعها من عبث المفسدين والمبتدعة من ناحية أخرى .

ولعل مصداق هذا الذى ذهبنا إليه يأتي على لسان اليوسي وهو يعقب على تلك المنكرات الواردة فيما تقدم ذكره من الحوادث ، فيقول : فالحذر مطلوب . ولا سيما فيما نحن فيه من آخر الزمان الذي استولى فيه الفساد على الصلاح، والهوى على الحق ، والبدعة على السنة إلا من خصه الله وقليل ماهم » (1) .

الإسراف في التوسل :

وإذا كانت الفلسفة الماورائية والرياضات العقلية النظرية قد غلبت على بقاع أخرى من العالم الإسلامي حتى انتهت بأصحابها إلى مذاهب غريبة عن الروح الإسلامية الحقة كما هو الحال بالنسبة للحلاج وغيره ممن تضاربت الأقوال حولهم وحول سلامة منقلبهم ، فان روح الإستسلام والركون إلى ما لا يبتعد كثيرا عن الخرافات ، وإن روح الإكتفاء في التسليم بالإلتجاء إلى الصالحين والأولياء والتتوق إلى درجة الولاية والمشيخة ، والعناية بالأذكار والأوراد والأحزاب المؤلفة للمريدين يتلونها غدوا وعشيا في أوقات مخصوصة جماعات وفرادى ، وإن رواج الأمداح وتعاطي السماع والرقص والشطحات البدنية وما تنتهي إليه من صرعة وغيبوبة وما شابهها قد سادت الكثير من الأوساط المغربية التي تنتسب آنئذ إلى الطرقية وأرباب الزوايا والمتظاهرين بالتصوف إلا من سلمه الله منهم . وقليل ماهم .

ولقد تولدت عن هذه الروح بين الأفراد المجتمع عقلية تتشابه في كثير من أحوالها دونما تمييز بين أصحابها وأربابها . وتبدو لدى الواقف على

---

(1) نفس المصدر السابق .

مداركها ونظراتها وأبعاد تصوراتها أنها في منتهى البساطة والسذاجة، حتى لا تكاد يصدق المرء أنها عقلية أولائك النبغاء والمفكرين والعارفين الغائصين في بحري الشريعة والحقيقة، والذين اشتهر أمرهم بسعة العلم وطول الباع في العقليات والنقليات من أمثال أبي علي اليوسي.

إنها عقلية من يكتفي للاقتناع والقبول لما يقع تحت أنظاره أو سماعه ويصادف حصوله موافقة المرغوب مما يتوهم أنه من آثار التوسل بالصالحين والأولياء ـ الذين لهم التصرف في الحياة بل وحتى في الممات أيضا حسب زعمه ـ يكتفي بمجرد حصوله أو ورود أخباره على لسان من يطمئن لصدقه ويرتاح لشخصه لمجرد ظهوره بمظهر أهل الخير والفضل، أو بمجرد حصول الأمر المرغوب فيه عقب الزيارة والإطعام والتماس البركة، عازيا وقوع ذلك المرغوب إلى الولي الذى وقع التوسل به، أو الذى رئي في المنام ووقعت الزيارة لضريحه وأنجز تقديم القربان في حضرته وداخل مزاراته، والذي تليت أمام تابوته الأدعية وفاتحة الكتاب.

والجدير بالملاحظة أن لأمرا قد يهون لو أن هذا الذى ذكرناه منحصر شأنه في العوام، الذين هم عرضة قبل غيرهم للانسياق وراء ذلك وأكثر منه غالبا. ولكن هذا هو حال تلك الاوساط وحال الكثير ممن يحسب أنهم قد سما إدراكهم وتنورت عقولهم وتزودت بالمعرفة أدمغتهم، وبلغوا من العلوم الشرعية مكانا عليا.

واليوسي بدوره يساعدنا على الكشف على هذه الحالات التي تتطلب منا الكثير من العناء في محاولة الوصول إلى معطياتها أو فهم أسرارها. فينقل لنا في كتابه المحاضرات أمثلة عديدة على ظاهرة تمكن هذا الإعتقاد من الناس وسريانه في النفوس.

من ذلك مثلا ما حدثه به الرئيس السيد محمد الحاج الدلائي « عن أسلافه، أن ثلاثة من صلحاء المغرب قد جرب عندهم قضاء الحاجات : الشيخ عبد السلام ابن مشيش، والشيخ أبو يعزى. والشيخ أبو سلهام. غير أنهم اختلفو : فالأول في أمور الآخرة، والثالث في أمور الدنيا، وأبو يعزى في الكل.

نفعنا الله بهم وبأمثالهم » (1) . ثم هو يتخذ من هذه القصة مناسبة ليثبت لنا وقائع كثيرة من هذا القبيل . يأتي ضمنها بما يحاول أن يجعل منه ما يؤكد صحة هذا الإعتقاد . وهل هناك أقوى حجة من الوقائع الملموسة والحوادث المجربة ؟ ذلك ما حاول أن يحشره اليوسي في مقاله هذا عندما قال : « وقد شاهدت المولى ادريس بن ادريس رضي الله عنه أيام مقامي في مدينة فاس ترياقا مجربا في كل ما أنزل به من حاجة » (2) . ثم هو يسرد علينا بعد ذلك وقائع قريبة من هذه التي تحدث عنها قبل ، والتي لا تخرج عما نحن بصدده الآن . هي أحداث وقع البعض منها لأهله وبمحضره هو ، ووقع البعض الآخر منها لغيره وقد نقلها له . والكل قد شوهدت ملامحه وبوادره في المنام ، واكتملت عناصره في اليقضة . فتحققت كل الآمال المعلقة وبلغت الأنفس ما اشتاقت إليه ، وعسر بلوغه والتحصيل عليه قبل ذلك . ذلك ما أوقفنا عليه الإمام اليوسي في القصص الثلاثة التالية وفي قصص أخرى غيرها .

أما القصة الأولى فهي التي حدثه بها في مراكش « الفاضل أبو العباس أحمد بن أبي بكر الهشتوكي قال : رأيت ذات ليلة فيما يرى النائم أني دخلت مقام الشيخ أبي عبد الله محمد بن سليمان الجزولي . فإذا هو جالس وهو يقول : من كانت له إلى الله حاجة فليأتنا ... فجئت إليه فقلت : إنك قلت كذا وكذا . وها أنا جئت في هاتين الحاجتين . قال : فقضى الله الحاجتين معا » (3) .

وأما الثانية فهي التي وقعت لزوجة اليوسي نفسه عندما اشتد عطشها إلى الإنجاب وطال عليها الأمد حتى قاربها اليأس منه ، والتي أوردها في

---

(1) المحاضرات : ص 61 .
(2) نفس المصدر السابق .
(3) نفس المصدر السابق .

الكتاب أيضا بقوله : « وكانت أهلي أيام كنا بالزاوية البكرية (1) قد تراخت عنها الولادة . فدخلها من ذلك غم عظيم . فأصبحت ذات يوم فأخبرت أنها رأت أنها ذهبت إلى مقام سيدي أبي علي الفجائي . قالت : فوجدته جالسا وأنا في غاية العطش . فإذا حوله عين يرشح منها ماء قليل لا يغني . قالت : فقلت : يا سيدي ما هذا ؟ جئت إليك عطشى رجاء أن أشرب ، أفأرجع كما جئت ؟ قال : لا . إن الماء ثم . انبشي يخرج الماء . فنبشت بيدي فخرج الماء وشربت حتى رويت . وطلبت مني أن نزوره وأن نطعم عنده طعاما . ففعلنا . فولد ولدنا محمد الكبير أصلحه الله وأمتع به » (2) .

وأما الثالثة فهي التي كانت في حق ابنته المقعدة أو شبه المقعدة فلقد تحدث عن ذلك بقوله : « ولما نزلنا بالزاوية المرة الثانية . فقفلنا من مدينة مراكش . وكانت لنا بنية عجزت عن النهوض ، وهي في سن من يمشي . فظنناها مقعدة . فذهبت بها الخدم إليه (أي إلى مقام سيدي أبي علي الفجائي) وزوروها . فقامت بالفور على رجلها تمشي » (3) .

نعم قد يكون ذلك الذي تحدث عنه بين المنام واليقظة هو من الرؤى الصادقة التي جاء في حقها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب . ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزء من النبوة » (4) . غير أن الذي نتوقف فيه ولا نكاد نفهمه هو علاقة هذه الأشياء بالأولياء وتصرفهم فيها خصوصا الأموات منهم (5) .

ثم إن اليوسي بعد كل ما أورده في هذا المقام من القصص التي ذكرنا والتي لم نذكر ، يعلق على ما فعل بما قد يفيد أن هذه الأشياء عادية وطبيعية

---

(1) نفس المصدر السابق .
(2) نفس المصدر السابق : ص 62 .
(3) نفس المصدر السابق .
(4) رياض الصالحين : ص 349 .
(5) المحاضرات : ص 62 .

وأنها لا تثير عنده شيئا يحرك العقل ، ويصرفه إلى البحث فيما يقع عليه الإنسان من أهل المعرفة والفكر أو يعترضه في حياته بحثا علميا معللا تعليلا نظريا أو غير نظري ما هو عادة اليوسي في المسائل العلمية الأخرى ؛ بل إنه يقول في تعقيبه عليها : « ... وأمثال هذه الأمور لو تتبعنا منها ما رأينا وما سمعنا لملأنا بها الدواوين » (1) .

حرمة الزاوية :

ومما كان شائعا في هذا العصر تقديس الأضرحة والزوايا وتنزيلها منزلة الأماكن المقدسة التي لها حرمة وفي زيارتها أجر كبير وبركة ثابتة وتخفيف للشدائد والذنوب ، وفي الإحتماء بها وقاية وحفظ وأمان .

فلقد اهتم الناس كثيرا بمثل هذه الأماكن . واحتلت المزارات من النفوس مكان الإجلال والتعظيم . فكثرت بذلك الزيارات لأضرحة الأولياء والصالحين ، والمبيت عندهم ، والتردد عليهم في غير ما مرة ولا حالة . يقومون بها بالخصوص عندما تشتد الأزمات وتضيق الدنيا بما رحبت في وجوه أصحابها (2) .

ولعل هذا متفرع عن الظروف التي أحاطت بالبلاد في ذلك العصر . ولعل فيه أيضا أثرا من آثار ما وقر في نفوس الناس من تعظيم المتسببين لتلك الأماكن ، وتقديس ما كان منها قد شاهد نشاطا دينيا كبيرا . كما أنه قد يكون امتدادا لما عرف به المريدون والمتسبون إلى الزوايا واشتهر أمره من ارتباط هؤلاء بمشائخهم والسارعة إلى خدمتهم والإعتزاز بالانتساب إليهم والتربية عليهم التماس البركة منهم . حتى أن بعض الطلبة والمريدين يزهد في كل ما حوله من الدنيا مقبلا على شيخه وخدمته خدمة لا تحفظ فيها ، ويبقى على هذه الحالة هكذا السنين العديدة التي قد تبلغ العشرين عدا (3) . يخدم شيخه ويلازمه ملازمة الظل للجوهر ظعنا وسفرا . لا يبتعد

---

(1) نفس المصدر السابق .

(2) الرحلة لليوسي : ص 56 .

(3) طبقات الحضيكي : ص 123 ؛ رحلة الجزولي : ص 243 .

عنه إلا في الأوقات القليلة والظروورية منها (1) . ومن هنا لم يبق مستبعدا أن يكون استبداد هذه الخدمة وهذه المنزلة للشيخ بالمريدن قد تجاوزهم إلى غيرهم وتسرب منهم إلى من عداهم من العامة وغير العامة فتلبسوا بهذه المحبة وهذا التقدير والتوقير والتقديس لأشياخهم وللأولياء وأضرحتهم وزواياهم حتى تمكن منهم كل ذلك تمكنا جعل هؤلاء يرون أنه من المروق والرعونة ، ومما هو مستفضع ولا يمكن اغتفاره والسماح به مهما كانت الملابسات ، أن يسمح الإنسان لنفسه استباحة حرمة تلك الأمكنة أو التعدي عليها . فتولدت عن هذا حرمة ليست بعدها حرمة ، مما لا يعرف له نظير في غيرها من الأماكن والبقاع . الأمر الذي جعل الناس يبالغون في الإطمئنان إليها فيضعون فيها ودائعهم الغالية والثمينة التي لا يجدون لها مأمنا يقيها غائلة الإعتداء والسطو والإنتهاك لوكائها وعفاصها سوى تلك الأضرحة والأماكن (2) . وهكذا تمكنت مهابة الزوايا والمزارات من النفوس . فملأت القلوب . فلا يتجاسر إنسان على اقتحامها وامتهان حرمتها بل ومد اليد إلى المستجير بها مهما كان شأن ذلك الإنسان ولو كان من كان من محترفي اللصوصية ومن المتسكعين والمنحرفين ، ومهما كانت العوامل الدافعة على أن يفعل ويقتحم (3) .

المهدوية :

ومن الأمور التي نالت بعض الحظ في صفوف بعض المتصوفين الأخذ بأطراف المهدوية ، وتبني هذا المذهب والإنتساب إليه والدفاع عليه (4) . غير أن هذه الأفكار ، وإن تسربت في صفوف هذا البعض من أرباب الزوايا والطرق ، إلا أنها لم تجد رواجا كبيرا ولا اهتماما بها . وذلك لما

---

(1) نفس المصدرين السابقين .
(2) ايليغ قديما وحديثا : ص 37 .
(3) المسألة المغربية : ص 26 . 27 .
(4) المحاضرات : ص 92 وما بعدها .

لاقته من نكير بعض العلماء عليها فلم تعمر طويلا حتى أن أصحابها لم يستطيعوا أن يغرسوها في عقول العامة ولم يتمكنوا من تربية الناس عليها . فكانت بمثابة سحابة صيف عن قليل تقشع . وبقيت في بطون الكتب أو على الألسن ترددها بدون عمل إيجابي حيالها ولا دعوة منظمة تساندها .

ولعل هذا هو الذي جعل اليوسي يتعرض إليها بإشارة عابرة في كتابه المحاضرات عند حديثه على ظهور ابن أبي محلي وذهابه إلى بلاد القبلة فيقول : « ودعا لنفسه . وادعى أنه المهدى المنتظر . وأنه بصدد الجهاد . فاستخف قلوب العوام وتبعوه » (1) . ثم إن هذا الموضوع يستهوي الأمام اليوسي ليواصل الحديث فيه . فيتعرض عقب هذا الكلام عن ابن أبي محلى إلى أصل هذه الدعوة وأنها في الأصل دعوة فاطمية ، وأنها ظهرت عند قيام أبي عبد الله محمد بن تومرت وادعائه أنه المهدى المنتظر . ثم يعقب على هذه الدعوة بما يحاول اليوسي أن يبطلها به ، منبها إلى أن المهدي المنتظر « متأخر . حتى يكون في آخر الزمان لوقت خروج الدجال ونزول عيسى ابن مريم عليه السلام . وإنه ليس هو ابن تومرت ولا مثاله من كل من يدعي ذلك إلى زماننا » (2) . وبذلك الذى أثبته من أمرها يكون مؤرخا لها ومبطلا لأصولها ومفندا لدعاتها ولما يحاول أصحابها إيهام الناس به منها ، مما يدفعهم إليها ويغريهم بها .

هذا ومن جملة ما جاء في كتاب المحاضرات حديث أثبته أبو علي اليوسي جرى بين ابن أبي محلى وابن أبي بكر الدلائي دار حول دعوة الأول للثاني إلى القيام بما أوجبه الله تعالى من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهي من أهم المهمات وأوكدها على المسلم الذي يأنس من نفسه الإستطاعة ، ويزداد تأكدها على من يكون من المتصدرين لها بموجب الانتساب إلى الحركات الدينية الصوفية . ومن خلال الحوار الذي جاء في

(1) المحاضرات : ص 91 وما بعدها .
(2) نفس المصدر السابق : ص 92 .

الحديث نحاول أن نستنتج ما يمكن استنتاجه مما يرتبط بما نحن فيه الآن مما يتعلق بمظاهر الجو الديني الصوفي العام .

يقول اليوسي وهو يتحدث عن أول أمر أحمد بن أبي محلى صاحب ابن المبارك التستاوتي فيقول : « إنه في أول أمره كان معاشرا لابن أبي بكر الدلائي المتقدم الذكر (أي محمد بن أبي بكر) . وكان البلد إذ ذاك قد كثرت فيه المناكر وشاعت . فقال لابن أبي بكر ذات ليلة : هل لك في أن نخرج غدا إلى الناس فنأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ؟ فلم يساعفه لما رأى من تعذر ذلك لفساد الوقت وتفاقم الشر . فلما أصبحا خرجا . فأما ابن أبي بكر فانطلق إلى ناحية النهر . فغسل ثيابه وأزال شعثه بالحلق . وأقام صلاته وأوراده في أوقاتها . وأما ابن أبي محلى فتقدم لما هم به من الحسبة . فوقع في شر وخصام أداه إلى فوات الصلاة عن الوقت . ولم يحصل على طائل . فلما اجتمعا بالليل قال له ابن أبي بكر : أما أنا فقد قضيت مآربي وحفظت ديني وانقلبت في سلامة وصفاء . ومن أتى منكرا فالله حسبه أو نحو هذا . وأما أنت فانظر ما الذي وقعت فيه » (1) .

فهذا الحوار بين الرجلين قد يساعدنا على أن نتصور أن المتصوفة أو البعض منهم على الأقل كانوا لا يغشون المجالس العامة للقيام بالوعظ والإرشاد . وكانوا يتجنبون التردد على الناس في اتصال بهم داخل خضائرهم ، أين يلتقي بعضهم ببعض في معاملاتهم . فيكونون أشكالا وألوانا ، ومنهم المنجذب ومنهم النافر ، ومنهم المؤمن ومنهم الجاحد . فهم إذن يقتصرون في قيامهم بواجبهم المفروض عليهم إزاء الناس – بموجب انتصابهم وتصدرهم لتعليمهم وتوعيتهم وتهذيبهم مع ما لهم في الأوساط العامة من سماع الكلمة ونفاذ الرأي – على ما يكون منهم في زواياهم ، مكتفين بأتباعهم ومن يترددون عليهم . فيجتمعون بهم في حلقات الذكر والورد والعبادة ، منصرفين بذلك عن المجامع العامة بالتوجيه والتوعية والإرشاد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لعموم من كان يحيا داخل أو خارج فلكهم ،

(1) نفس المصدر السابق .

بعيدا عن تلك الحلقات والمجامع واللقاءات ، متذرعين لذلك بفساد الوقت وتفاقم الشر . كما يساعدنا ذلك الحوار أيضا على أن نلاحظ أن المتصوفة ورجال الزوايا والطرق آنئذ كانوا مقتصرين في حركتهم الدينية الإصلاحية على التربية الفردية القائمة على إصلاح الأفراد الذين يفدون عليهم ويترددون على أماكنهم وزواياهم ، لا على التوعية العامة القائمة على إصلاح الجماعات وغزوهم في مراكز أعمالهم أو المحلات التي يؤمونها طلبا للراحة والتسلية أين يوجد من بينهم الكثيرون من المنهمكين في مشاغل الحياة ، والمنصرفين عن الطاعة والعبادة كليا أو جزئيا سعيا وراء الأغراض الدنيوية المختلفة . كما أنه بوصفه هذا ، مكننا اليوسي من التعرف إلى لون من ألوان الحياة الشخصية اليومية التي يتلبس بها أهل الطريق أو بعضهم من قومه وعصره . فقد أفادنا أن منهم من لا يستنكف من خدمة نفسه بنفسه ولو أوتي من الجاه والإمكانيات الواسعة ما كان لأمثال محمد بن أبي بكر الدلائي الذي هو من أبرز أفراد الأسرة الدلائية المتقدمة صاحبة السلطة والدولة والصدارة والعلم . ولعل هذا الذي ذكره صاحب المحاضرات هو سنة متبعة لدى رجال الطرق والزوايا أصحاب العزم والإستقامة .

ومن الجدير بالذكر أن اليوسي قد لفت أنظارنا إلى أمرين اثنين كانا قد طبعا الحركة الصوفية في البلاد ، وهو ينقل في كتابه هذا القصة التالية عن أبي محلى وهو يتأهب لقتال السعديين والثورة عليهم ، واقتطاع القطر السوسي من مملكتهم . فلقد تحدث اليوسي عن ذلك بقوله : « إنه (أي ابن أبي محلى) كان ذات يوم عند أستاذه ابن المبارك فورد عليه وارد حال . فتحرك وجعل يقول : أنا سلطان . أنا سلطان . فقال له الأستاذ : يا أحمد . هب أنك تكون سلطانا . إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا . وفي يوم آخر وقع للفقراء سماع . فتحرك وجعل يقول : أنا سلطان . أنا سلطان . فتحرك فقير آخر في ناحيته وجعل يقول : ثلاث سنين غير ربع . ثلاث سنين غير ربع . وهذه هي مدة ملكه (أي ملك ابن أبي محلى) » (1) . وهذان الأمران هما :

(1) نفس المصدر السابق : ص 91 .

أولا : التنبؤ بالغيب . مما يعبر عنه عند الصوفية بالكشف الذى يحصل للمشائخ والعارفين الذين بلغوا درجة من الصلاح والإستقامة تمكنهم من الإطلاع على الغيب والأخبار بما تأتي الوقائع والأيام شاهدة على صدق صاحبه وموافقة أقواله للواقع ومطابقته لما يحصل في عالم المشاهدات في المستقبل .

ثانيا : اشتمال حلقات الذكر على السماع والإنشاد وما ينجر عن ذلك من تواجد وخمرة هي مما يسمى بالشطحات الصوفية التي يتلبس بها من يحضر تلك الحلقات من حالة شبيهة بحالة الغيبوبة والخروج بصاحبها من عالم الشعور منتقلة به ظاهريا إلى عالم االلاشعور أو الشبيه به .

أما فكرة الكشف والأخبار عن المغيبات فهي من الأشياء التي يبدو من كلام اليوسي في كتابه أنه يسلم بها تسليما لا يقبل النزاع ولا الجدال ، وأن له فيها رأيا شرحه شرحا عجيبا . فلقد تبسط في موضوع الكشف طويلا وملأه حديثا أورد فيه — إلى جانب ما نقله من قصص وحكايات (1) تتطابق في محاورها وتتشابه في مضامينها — بحثا شيقا تناول فيه الموضوع تحليلا وشرحا وبيانا ، متعرضا فيه إلى أقسام الغيب ومحذرا أقوامه والواقفين عليه من الوقوع في حبائل الكذابين أو الوقوع في الغرور بأن لهم قدما راسخا بموجب ما انتهوا إليه في وهمهم من درجات وأشواط في طريق القوم . فيكونون بموجب ذلك من الكذابين أنفسهم (2) .

وأما السماع وما يتبعه من الغيبوبة والوجد فقد ذكره أبو علي اليوسي متفرقا في كتابه المحاضرات (3) ، مما يدل على أنه أمر منتشر في صفوف الصوفية لديهم . الأمر الذي جعله يشير على من عرفوا به ونقل عنهم بتجنبه وتجنب ما يوقعهم في الغيبة كما ورد في الكتاب ؛ إذ قد تكون حالة الغيبة التي يقع فيها هي من دسائس الشيطان . ذلك لأن تلك الغيبة إذا ما حصلت

(1) المحاضرات : ص 64 وما بعدها . وكذلك : ص 98 .
(2) المحاضرات : ص 98 وما بعدها .
(3) المحاضرات : ص 90 ، 110 مثلا .

انجر عنها غياب العقل فيتصرف الشيطان كما يتصرف العدو عند غياب الخافر والحارس » إلا ذلك الذي يتواجد بالسماع لا عن اختيار . فأمره غير هـذا (1) .

ومعلوم أيضا أن كثيرا من المشائخ لا يرون بأسا في السماع والإنشاد مثل ما نقل عن الشيخ عبد للقادر الفاسي أنه كان يحب السماع والرقص مما سنذكره عند التعرض بالحديث عن الزاوية الفاسية وما جمعت بين جدرانها من نشاط علمي وصوفي .

اطعـام الطعـام :

ومن المفيد جدا أن لا نغفل قضية أثارها اليوسي في كتابه . لها كامل الصلة بحركة الطرق والزوايا في البلاد المغربية . حتى أنها في نظر العوام من الأسس التي يبنى عليها كيان الزاوية ولا بد . تلك القضية هي ما نسجه وهم العوام من الرابطة التي ذهبوا إلى إثباتها في نظرهم بين قيام كيان الزوايا والطرق وإطعام الطعام لمن يقبل عليها أو يجاور فيها . وهي الظاهرة التي ما زال القوم يتوارثونها إلى اليوم في الزوايا وخارج الزوايا وفي المناسبات وغيرها . ولعلها من العوامل التي نشطت ميول المغاربة إلى إقامة الحفلات والدعوة إليها بأدنى مناسبة . فيقيمون الأفراح ويقيمون لها الموائد مما يضفي عليهم طابع الكرم وحسن الضيافة والجود العربي الأصيل .

هذه الظاهرة تحدث عنها اليوسي في كتابه المحاضرات . وتبسط فيها تبسطا أخذ بأطرافها ، وتناولها من كافة جوانبها . كما نبه إلى ما أضحى عليه العوام من اعتقاد وجوب إقامة الزوايا بإطعام الطعام لكل وارد يرد عليها ، خصوصا إذا كانت في البوادي البعيدة عن العمران . فحاول اليوسي بما حرره في الموضوع أن يصحح هذه النظرة ويعود بها إلى أصولها

---

(1) نفس المصـدر السـابق .

التاريخية والأخلاقية . وبذلك أفادنا فائدة تاريخية هي بالنسبة للبلاد المغربية آنئذ من الظواهر الإجتماعية والروحية في آن واحد ، وذلك حينما قال : « إن الزاوية المشتهر اسمها اليوم عند أهل الطريق من إطعام الطعام للوافدين والمساكين والملازمين على الدوام ، حتى صارت عند العوام كأنها من الفروض أو الشروط ، لا يعلم لها من حيث خصوصها أصل ، ولا يجري لها ذكر في الكتاب ولا في السنة . وإنما مرجعها إلى القرى وإكرام الضيف » (1) .

وبعد أن يأتي أبو علي اليوسي ببسطة ضافية في الموضوع تشتمل ضمن ما تشتمل عليه على لمحة تاريخية حول إطعام الطعام في الزوايا المغربية كما ذكرنا — سواء كان هذا الإطعام من مال شيخ الزاوية والطريقة أو مما يرد عليه من الفتوح التي يتقدم بها المنتسبون إلى الزاوية وأهلها — يثبت في كتابه العادة الجارية في عصره ومسايرتها لنظرة الناس إلى صلة الزوايا بإطعام الطعام فيقول : « وقد شاع اليوم إقامة الصوفية الزوايا بإطعام الطعام ولا سيما في بلادنا المغربية ، وخصوصا في البوادي وما يكون من فتوح يأتي إلى بلد الشيخ ، وهو ينفق منه على المجاورين والواردين . وهذا قد كان فيهم من قديم » (2) .

والذي يبدو أن ظاهرة إطعام الطعام في الزوايا كانت في بادىء أمرها بدافع حسن الضيافة . ثم توسع فيها حتى كانت من المرغبات التي يقع بها تشجيع المريدين والوافدين للحاق بالزوايا والإقبال عليها . ذلك أن الشيوخ كانوا يقومون بذلك حسبما يظهر لإغناء المريد عن السعي وراء لقمة العيش وهو في حضرتهم . فيكفون بذلك المقبلين عليهم شؤونهم وشؤون دوابهم . خصوصا إذا كانوا في البوادي والأماكن النائية عن العمران كما ذكرنا وكما هو الحال الأغلب . وهكذا يتولد عن هذه المعاملة شعور عند العوام بأن هذا الإطعام أمر مفروض وواجب تنبني إقامة الزاوية عليه ، فلا وجود لها بدونه .

---

(1) المحاضرات : ص 115 .

(2) المحضرات : ص 117 .

والغالب على الظن أن هذه السنة هي سنة جل الزوايا المغربية بدون تخصيص ، إن لم تكن سنة جميعها على الإطلاق في كافة أرجاء المغرب . والغالب على الظن أيضا أنها ـ وإن اتحدت في المبدأ ـ لم تكن على نسق واحد . فهي تتفاوت وتختلف حسب الظروف والإمكانيات . حتى أن الذي نقل عن الزاوية الدلائية أيام الشيخ أبي بكر الدلائي وابنه محمد من بعده يدعو للاستغراب والدهشة إلى حد أن العقل قد يجد الكثير من العناء والجهد لتصور ما يجري من ذلك في الزاوية الدلائية المذكورة فضلا عن قبوله والتصديق به (1) .

ولعل ما يقام الآن في المغرب الأقصى مما يسميه القوم هناك بالموسم ، فيخصصون له موعدا معينا ، وغالبا ما يكون صيفا أو ربيعا ، ويفد الناس على الزاوية التي كان موعد موسمها ، ويقيمون الاحتفالات ويذبحون الذبائح ، ويقضون هناك أياما وليالي عديدة تختلف باختلاف الجهات ، لعل هذا الذي ذكرنا هو أثر موروث عما كان يقيمه الناس قديما من اللقاءات في الأضرحة ، والزيارات للزوايا بمناسبة الأعياد الدينية أو غيرها . فيرد المريدون والمنتسبون من كل حدب وصوب إكراما واحتفالا . ثم في الختام تتلى فاتحة الكتاب وينقلب الزائر إلى أهله راضيا مرضيا ، وكله إيمان وأمل في أن تناله بركة ذلك الصالح وأن ينتفع بزيارته تلك .

(1) الزاوية الدلائية : ص 46 .

أبرز الزوايا المغربية ومنهجها في طـرق القوم

اذا كنا قد حرصنا فيما كتبنا حول التصوف بالمغرب – إلى الآن – على الوقوف أمام المظـاهر العامة التي لا ترتبط بطائفـة معينة ، ولا بأقوام معينين ، أو بتشكيلة من الفرق الدينية بعينها ، وإنما هي ظواهر عامة استقيناها من كتاب المحاضرات لشخصية علمية صوفية عـاشت ذلك العصر ، وحضرت كثيرا من الحوادث التي واكبته ، ووقفت بنفسها على كثير من الأحداث التي صاحبتـه ، وسمعـت كثيـرا من الأقـوال ، ولاحظـت كثيـرا مـن المـلاحظات ، فنقلت كل ذلك أو الكثيـر منه بـأمـانة العـالم المسلم ، ونـزاهة الصـوفي المتـدين ، دونمـا افتيـات ولا تحيـز ، ودونما تـأثر بأي عامل آخر من العوامل التي تضغط على النفوس عادة فتدخل الشك في أخبـارهـا وتـعليقـاتهـا ، إذ لا داعـي لـصاحبهـا فـي ركـوب مـراكـب الـكـذب والـزيـف في ظـاهـر الأمـر وواقعـه كمـا يستفـاد مما كتب عن حياة الرجل ، إذا كنا حرصنا فيما كتبنا على ذلك فاننا نريد أن نتعرض هنـا الى مجموعات من الزاويا بعينهـا أجمع القوم على سلامة سلوكها ونـزاهة شيـوخها ونجاعة خدماتها ، مبتعدة كل البعد عن الخرافات والأوهـام والبـدع في كثير من حالاتهـا ، وغير مقتربـة مما يدخـل الريب فيما قدمتـه لهذا المجتمـع في المحنـة التي ألمت به والتي هـي محل عنايتنـا بهذه الدراسـة فكانت له خيـر سنـد ونصير . وبهـذا يتبين المطالـع أن ما كتبنـاه حول تصوف المجتمع المغربي آنئـذ ، ومـا بدا فيه من قبول للأوهام والخرافات ، ولما قد لا يستسيغه العقل ولا الذوق

ولا المنطق ولا الدين ، هو المنهج العام والطابع الغالب على المجموع وليس هو مسلك الجميع ومنهج المغاربة أجمعين فرادات وجماعات ، كما أنه ليس ملتزما من طائفة معينة مخصوصة ولا هو من صنع أفراد بأعيانهم . وإنما هو حصيلة الحالة العامة التي باتت عليها البلاد ، والتي تولدت عنها بموجب ما يلقاه العابثون من مشجعات الغفلة داخل مجتمع متفككك ، فاقد للقيادة والتوجيه والارشاد والتوعية والحراسة والذب على الحياض ، وأنه لا يدين لسلطة معينة وقد أنهكته الفتن والحروب .

غير أن هذا الذي استبد بالجو العام ، والذي كان متتشرا في الأوساط العامة لم يستطع أن يستبد بكامل البلاد ، ولا أن يفسد عليها الأمل في النجاة من المهالك وفي العودة الى شاطىء السلامة . وذلك بسبب قيام رجال أخلصوا لله وللوطن فجمعوا القوى لتنطلق الى البناء — أو على الأقل — لتحافظ بوقوفها في وجه المعتدين ، وبمقاومتها للباغين المستهترين ، في جهاد ديني من جهة ، وفي عزم معقود على خدمة الشريعة والحقيقة حتى لا ينقطع النبع الفياض الذي تدفق على البلاذ المغربية مع الجيوش الاسلامية الفاتحة ، فنشرت الدين وغذت عقيدة المؤمنين من جهة أخرى . وما هؤلاء الذين نعنيهم بالاشارة سوى شيوخ زوايا معينة قد أطبق الناس على تمجيدهم والإعتراف بفضلهم ، حتى قالوا عنهم : « ومن المقرر عند الشيوخ أن العلم إنما أحياه بالمغرب ثلاثة من الشيوخ : سيدي محمد بن أبي بكر الدلائي ، وسيدي محمد بن ناصر في درعة وسيدي عبد القادر الفاسي » (1) .

وعلى هذا الأساس فإننا سنفرد القول بالحديث على تلك الزوايا التي هي في الحقيقة أمهات زوايا المغرب في القرن الحادي عشر الهجري وأشهرها استقامة واقترابا من السنة ، خدمت الدين والتصوف ، وخدمت مع ذلك المعرفة بما عرفت به من نشر للعلم وإحيائه . تلك الزوايا هي : الزاوية الدلائية ، والزاوية الفاسية ، والزاوية الناصرية ، ورابعة الثلاثة وهي الزاوية العياشية .

(1) الزاوية الدلائية : ص 56 .

الزاويـة الدلائيـة :

في الثلث الأخير من القرن العـاشر ، وبـإشارة من شيخه أبي عمر القسطلـي (1) أسس أبو بكر بن محمد بن سعيد المجاطي الدلائي (2) الزاوية الدلائية البكرية (3) ليطعم الطعـام فيهـا على غرار شيخه في زاويته بمراكش . فـأقـامها حوالي عـام (974/1566) (4) . وانقطع فيها مدة تتجاوز ثلث قرن لإرشاد المريدين وإلقـاء دروس الوعظ وإطعـام الفقراء والمساكين والطلبة والزائرين . وفي هذه المدة اجتهد كثيرا في إقـامة العمران حولها . فبنى الدور والمرافق الضرورية حتى صارت من المدن التي يقصدها الداني والقاصي . كما حبس الرباع على الطلبة والمساكين حتى تحولت إلى ملتقى للطلاب والعلمـاء فيقيمون طويلا هنـاك ، وتعقد المجالس العلمية بهـا . ولمـا اختل الأمن بعـد وفـاة المنصور الذهبي وكثر النهب والسلب كان أبو بكر الدلائي يكف أيدي الجنـاة عن الجرائم بما له من المكانة والتقدير والاحترام عند القبائل البربرية .

ولعل ما اتصف به من أخلاق عالية وسلوك فـاضل وديـانة ثابتة وتسـامح بعيد ووعظ مـؤثر وكرم بـالغ ، هو من العوامـل التي حببته الى النـاس بجميع أصنافهم . فـأصبح مقصدا للقاصدين . وأصبحت الزاوية والمدينة التي أقـامها حولهـا موئلا للوافدين . فيستفيدون من علمه وأخلاقه ووعظـه وتربيته . كما يلقون عنده الإكرام البـالغ والحفـاوة الكبيرة ، والإطعام الذي لا حد له . حتى قيل عنه في هذا الباب : انه « كان كثير الإطعـام بالأنواع المختلفة من الطعـام أمرا خـارجـا عن الوصف ، مباينـا للعـادة والألف ... كان يطحن كل يوم خمسا وعشرين صحفة من

---

(1) انظر ترجمتـه في الزاوية الدلائية : ص 30 .
(2) انظر ترجمتـه في المصدر السابق : ص 43 .
(3) وتسمى أيضا الزاوية البكرية نسبة إلى مؤسسها .
(4) الزاوية الدلائيـة : ص 30 .

القمح وعشرين تليسا (1) . ثم كان يطعم كل الناس . تارة بما اشتهاه في نفسه ، وتارة بما يناسبه من أبناء جنسه . فليس الحضري عنده كالبدوي ولا الضعيف كالقوي » (2) .

وكان المولد النبوي الشريف عيدا دينيا كبيرا ، ومناسبة دينية مترصدة من الناس تقام فيها الإحتفالات والأذكار والأمداح النبوية بالزاوية ، يقصدها فيها العلماء والأدباء والأغنياء والفقراء فتلقى القصائد وتنشد المدائح وتوزع الجوائز . ويكون الحظ الأوفر منها لمن أجاد في مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم من شعراء ذلك العصر الذين يتوجهون اليها غالبا ، وفي هذه المناسبة بالذات ، من أجل ذلك (3) .

أما الطريقة التي اعتمدها مشائخ الزاوية الدلائية ، والتي استمدوا أذكارهم وأورادهم منها فهي الطريقة الجزولية (4) الزروقية (5) الشاذلية (6) المتصلة بالإمام أبي القاسم الجنيد (7) التي تعتبر من أسلم الطرق وأقربها إلى السنة .

ولعل هذه هي الطريقة المعتمدة في المغرب الأقصى ، كما وردت الإشارة إليه في كتاب المرشد المعين لعبد الواحد ابن عاشر (8) المعتمد غالبا

---

(1) الصحفة : مكيال يقدر بثلاثة قناطير ؛ والتليس : كيس مزدوج يصنع من صوف أو شعر أو وبر لتنقل فيه الحبوب على ظهور الدواب . الزاوية الدلائية : ص 46 .

(2) الزاوية الدلائية : ص 46 .

(3) نفس المصدر السابق : ص 47 .

(4) نسبة إلى الشيخ محمد بن عبد الرحمان الجزولي ، شيخ الطائفة الجزولية . انظر ترجمته في الزاوية الدلائية : ص 48 .

(5) نسبة إلى الشيخ أبي العباس أحمد زروق . انظر ترجمته في المصدر السابق : ص 50 .

(6) نسبة إلى الشيخ أبي الحسن الشاذلي . انظر ترجمته في المصدر السابق : ص 49 . وكذلك في الترجمانة الكبرى : ص 445 .

(7) الشيخ أبو القاسم الجنيد المتوفى سنة 277 هـ . انظر الزاوية الدلائية : ص 48 .

(8) هو أبو مالك عبد الواحد بن عاشر الأنصاري الفاسي المتوفى سنة 1040 هـ . النبوغ المغربي : ج 1 ، ص 248 .

في جميع المعاهد المغربية بله المعاهد الدينية بشمال إفريقيا تقريبا بما في ذلك الجامع الأعظم جامع الزيتونة الذى كان يدرس فيه هذا الكتاب فى السنة الأولى من المرحلة الأولى من التعليم الثانوي بها .

يقول ابن عاشر مشيرا الى التزام هذه الطريقة بالمغرب ، وإلى اعتبارها المنهج الذي يسار عليه في التربية الصوفية ، كما وقع التزام المذهب المالكي في الفقه ، والمذهب الأشعري في العقائد هناك أيضا :

في عقد الأشعري وفقه مالك وفي طريقة الجنيد السالك (1)

والمعروف عن الدلائيين أنهم في اعتمادهم على الطريقة الشاذلية المعروفين بها ، لم يكونوا ملتزمين لما جاء فيها حذوك النعل بالنعل . ومن أجل ذلك فإن انتسابهم هذا إلى تلك الطريقة ما هو في الواقع إلا من حيث المبدأ والإختيار . خصوصا وأنها تلتقي مع ما عرف به أجدادهم قديما وقبل تأسيس أبي بكر لزاويتهم هذه من الميل الى الإكثار من الصلاة على النبي محمد صلى الله عليه وسلم .

ومعلوم أن الطريقة الشاذلية لها هذه الخاصية . وهي خاصية الإكثار من الصلاة على المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وبذلك تكون هذه الطريقة مجانسة لميول الدلائيين ، ومطابقة لما كان متعلقا به أجدادهم ؛ إذ إن والد أبي بكر – وهو سعيد بن أحمد الدلائي – كان معروفا بالمواظبة « على قراءة دلائل الخيرات ، لا يفارقه في أكثر الأوقات . وكان يأمر أولاده بها (أي بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم) ويرغبهم فيها .. » (2) أما فيما يخص الأذكار والأوراد فإنهم لم يعرفوا في ذلك بشيء خاص بهم . كما أنهم لم يرتبطوا ارتباط التزام وتقيد بالصيغ المعينة على خلاف ما هو عليه معاصروهم من مشائخ الصوفية ومن جاء بعدهم .

---

(1) المرشد المعين لابن عاشر .
(2) الزاوية الدلائية : ص 52 .

غير أنهم من ناحية أخرى كانوا يأخذون على مريديهم وكل من يريد الإنضمام إلى مجالسهم والانتساب إليهم وجوب المسارعة بالتوبة الصادقة المشروطة بشروطها المعروفة (1) مع الالتزام بها والمواضبة عليها. كما يوصونهم — زيادة على ذلك — بالإكثار من الإستغفار في جميع حالاتهم.

والخلاصة أن للدلائيين صيغة خاصة بهم وبأتباعهم من المريدين يصلون بها على النبي صلى الله عليه وسلم (2)، كما كانت للشيخ أبي بكر الدلائي وظيفة لنفسه ولمريديه (3) يتعبدون بها، ويذكرون الله بصيغتها.. كما أن لابنه — وهو الشيخ محمّد بن أبي بكر الدلائي — أورادا وأذكارا « كان يوظفها على المريدين بالليل والنهار » (4).

الزاوية الناصرية :

تأسست هذه الزاوية في أواخر القرن العاشر الهجرى لغرض صوفي هو إرشاد الناس وهدايتهم وتهذيب أخلاقهم على مبادىء الطريقة الشاذلية. ثم ما لبثت حتى احتضنت النشاط العلمي بجانب النشاط الصوفي.

فلقد أسسها بتمغروت، على ضفاف وادي درعة وراء الأطلس الكبير، وعلى بعد يقارب الاثنين والعشرين كيلومتر في الجنوب الشرقي من زاكورة، أبو حفص عمر بن أحمد الأنصاري (5)، حوالي سنة (983/ 75—1976) (6). وتسلم المشيخة من بعده ومن بعد وفاة الشيخ الصوفي

---

(1) « ... من الإقلاع عن الذنوب، والعزم على عدم ارتكابها مرة أخرى، وتلافي ما يمكن تلافيه من الحقوق المترتبة من قبل، والاكثار من الاستغفار ». الزاوية الدلائية : ص 52.

(2) وهي : « اللهم صل على سيدنا محمد عبدك ونبيك ورسولك النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليما ». الزاوية الدلائية : ص 53.

(3) الزاوية الدلائية : ص 52.

(4) نفس المصدر السابق.

(5) انظر ترجمته في الزاوية الدلائية : ص 57.

(6) نفس المصدر السابق.

عبد الله بن حسين الرقي (1) حفيد الشيخ عمر الذى كان يلقن أوراد الشاذلية فيها وهو الصوفي الصالح أحمد بن إبراهيم الأنصاري (2) . ثم حل بها عام (1040/30–1631) الشيخ أبو عبد الله محمد (بفتح الميم) ابن ناصر الدرعي شيخ الإمام أبي علي اليوسي في طريق القوم .

أقام الشيخ ابن ناصر بها مدة . فأخذ الطريقة عن الشيخ الرقي المذكور (3) واستقر هناك بطلب من هذا الأخير متصدرا للتدريس ونشر العلم فيها . حتى قصده الطلاب من مختلف جهات الصحراء .

وما أن قتل الشيخ أحمد بن إبراهيم الأنصاري حتى خلصت زاوية تمغروت للشيخ ابن ناصر الذى تسمت الزاوية باسمه ، فأصبحت تنسب إليه . وبذلك جمع بين الاشتغال بالعلم ونشره والتربية والإرشاد .

وهكذا يصبح ابن ناصر قطب الزاوية وشيخ الطريقة ، مشرفا على حلقات المعرفة ، وحلقات الذكر والنشاط الصوفي هناك ، مستفرغا كل قواه في الزاوية ، معرضا عما سواها ، متحملا الكثير من العناء وشظف العيش ، متجلدا صابرا « في هذه المدة غاية الصبر على معيشته وكسوته حتى كان ينام مع أهله على التراب لعدم ما يشتري به حصيرا يفرشه وربما افترش ليفا أو جريد نخل ... » (4) .

والمعروف عن ابن ناصر أنه كان متمسكا بالسنة ، بعيدا عن مجاراة المتصوفة فيما لا يساير سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، متعمدا مخالفتهم في اتخاذ السبحة والخرقة والضيافة (5) ، حتى أنه كان يكتفي بأذان

---

(1) نفس المصدر السابق .
(2) نفس المصدر السابق .
(3) نفس المصدر السابق .
(4) نفس المصدر : ص 58 .
(5) نفس المصدر السابق .

واحد للجمعة ، كما كان يتعمد ترك قراءة فاتحة الكتاب في معقبات الصلاة على خلاف ما جرت به العادة عند صوفية زمانه . ومما يؤثر عنه أيضا أنه كان يخالف خطباء المساجد يوم الجمعة فيما يقومون به من الدعاء لأمير البلاد على منابرهم . فكان لا يدعو للأمير في خطبة الجمعة ، مما أثار عليه غضب السلطة ، وجر له نقمة السلطان رشيد بن الشريف العلوي الذي بيت له مصيرا خطيرا . فبعث إليه « بكتيبة من الجيش للبطش به ولكن الله سلم » (1) .

والملاحظ أن ابن ناصر هذا كان يراعي حالة المريدين عند تلقينهم للأوراد التي لم يرد ضبطها وتعيينها ، والتي لم تكن عنده على صيغة مخصوصة ولا على وتيرة واحدة للمريدين . فكان يميز في ذلك بين الرجل والمرأة ، وبين الرجل والرجل . فالذي كان يلقنه للمتفرغ من الرجال ليس كالذي كان يلقنه لمن له أشغاله اليومية . أما المرأة فانه كان يراعي فيها شؤونها المنزلية وما هي عليه من طاقة لا تبلغ مستوى الرجال (2) .

ولعل هذا الجزء من رسالته التي توجه بها الى بعض طلبة تلمسان الذين سألوه الدخول في زمرة أتباعه ومريديه يستطيع أن يفيدنا بعض الفائدة عما كان يمد به مريديه من الأذكار . فلقد جاء في هذه الرسالة قوله :

« ... وأوصيكم بتقوى الله . ولا ترجوا ولا تخشوا إلا الله . وأما السبحة والضيافة والخرقة فليس عندنا فيهن رواية . وانما طريقتنا الذكر . وهو نحو ما ذكره الشيخ السنوسي (3) في آخر شرح العقيدة الصغرى . فإن رغبتم في الدخول في السلسلة فصححوا التوبة وشروطها . وعليكم بتقوى الله والتوكل عليه في جميع الأمور ، والتأهب ليوم النشور ، والتزود لسكنى القبور . وإذا فرغتم من الأذكار المأثورة بعد صلاة الصبح فقولوا :

---

(1) نفس المصدر السابق : ص 59 .
(2) نفس المصدر السابق .
(3) نفس المصدر السابق : ص 58 .

أستغفر الله مـائة مرة ، اللهم صلى على سيدنـا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليما . كذلك : لا إلاه إلا الله ، ألف مرة . هذا إذا كان ممن يعـاني القراءة وكان ذكرا . وأمـا المرأة فحسبهـا من الهيللـة مـائة مرة . وإن كان عاميا فليذكر الهيللـة سبعة آلاف مرة . ويزاد عند تمـام كل مائة : محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . هذا هو الورد بين الصبح والصبح . »(1)

أمـا الأذكـار التي كان ينصح بهـا من طلبهـا منه وانظم إلى السلسلة فقد يمدنـا بها مـاجـاء في رسالته التي أجـاب بهـا أحد طلبته ، وهو الإمام الشرقي بن أبي بكر الدلائي ، حينمـا كتب لشيخه هذا يسترشده عن أذكـار يتلوها في الليل والنهار ، والتي ورد فيها : « ... فـإذا أصبحت وإذا أمسيت فـاتل هذه الأدعية سبعاً سبعا : اللهم صل على سيدنـا ومولانـا محمد وعلى آلـه صلاة تدرأ بها عنا كل شر باطن وظاهر . إنك أنت القوى القـاهر . اللهم صل وسلم على سيدنـا ومولانـا محمد وعلى آله صلاة تجلب بهـا إلي كل خير باطن وظاهر إنك أنت الله القوى القـادر . سبحـان ربي الأعلى الوهـاب . اللهم إني أسـألك العافية في الدنيا والآخرة . اللهم أسألك العفو والعافيـة في ديني ودنياي وأهلي ومالي . اللهم استر عورتي وآمن روعتي . اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي ، ومن شمالي ويميني ومن فوقي ومن تحتي . أعوذ بك أن أغتال . اللهم يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث ، أصلح لي شأني كله ، ولا تـكلني إلى نفسي طرفة عين . حسبي الله لا إلاه إلا هو . عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ... » (2) .

هذا ومما كان يأمر به مريديه الإكثار من الاستغفار بعد التوبة النصوح ، والإكثار أيضا من الهيللة ومن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم (3) .

---

(1) نفس المصـدر السابق : ص 59 .
(2) الزاوية الدلائية : ص 54 .
(3) نفس المصدر السابق : ص 59 .

وبهذا الذي استعرضناه نتبين أن طريقة الشيخ ابن ناصر لا تبتعد كثيرا عن طريقة الدلائيين ؛ إذ كلاهما طريقة شاذلية زروقية ، تلتزم البساطة والسنة النبوية ، في تجنب لعبارات الصوفية العامة ، غير أن الملاحظ على الدلائيين أنهم ينفردون بطريقة الشيخ الجزولي دون أرباب الزاوية الناصرية ومن يشاركونهم بالانتساب (1) .

الزاوية الفاسية :

تنسب هذه الزاوية إلى شيخها الأول ، وهو أبو المحاسن يوسف الفاسي(2) من مواليد مدينة القصر الكبير ، ومن الآخذين عن الشيخ عبد الرحمان ابن عياد الدكالي المشهور بالمجذوب (3) . فلازمه ولم ينقطع عنه إلى أن توفي سنة (976/68—1569) فتصدر بعده تلميذه أبو المحاسن هذا للمشيخة وتربية المريدين ، الذي انتقل بعد مدة إلى مدينة فاس ، وذلك سنة (988/80—1581) فأقام فيها بأقصى الدرب من حي المخفية بعدوة الأندلس ، أين كان يسكن هو ، مستخلصا لنفسه الطابق العلوي من داره ، وجاعلا من الطابق السفلي منها ملتقى يلتقي فيه بمريديه والمنتسبين إليه . حتى هيأت له الظروف ما ساعده على بناء مسجد ومنارة وزاوية في جوار مسكنه هذا . ثم هو بعد ذلك يطلب من أصحابه بتطوان أن يبنوا « رابطة هنالك لأورادهم وأحزابهم واجتماعهم للذكر والتذكير . فبنوها في العيون منها . وقام الرسم بها أحسن قيام . ولم تزل الصلوات راتبة بها ، ورسوم الخير من تلاوة وذكر وغيرهما ثابتة فيها ، واسم الزاوية جاريا عليها . ووقف الناس عليها أوقافا » (4) . وبذلك أصبح للزاوية مركزان : أحدهما

(1) نفس المصدر السابق : ص 60 .
(2) انظر ترجمته في الزاوية الدلائية : ص 61 ؛ وكذلك تعليق ص 49 منه .
(3) انظر ترجمته في الزاوية الدلائية : ص 49 .
(4) الزاوية الدلائية : ص 61 .

بفاس . والآخر بحي العيون بتطوان . وكلاهما ينتسب لشيخ واحد هو أبو المحاسن الفاسي المتقدم الذكر (1) .

والظاهر أن هذه الزاوية قد أنشئت لمهمة صوفية بحتة . غايتها في ذلك تربية المريدين وتلقينهم الأذكار على منهج الطريقة الشاذلية الزروقية الجزولية المعروفة والمنتشرة آنئذ في كثير من التراب المغربي .

وإذا لم تكن للزاويتين السابقتين — الدلائية والناصرية — أوراد معينة ، وإنما هي وظائف أقامها أشياخ الزاويتين حسبما انتهى إليه اجتهادهم ، فإن أبا المحاسن الفاسي لم يسلك هذا السبيل ، ولم يترك الباب مفتوحا على شبه الاختيار . وإنما رتب لذلك أذكارا مضبوطة ، وأعد أورادا محدودة يقرؤها المريد ونيوميا جهرة ومجتمعين في أوقات ثلاثة من اليوم :

أحدها بعد صلاة الصبح ، ويقرؤون فيه حزب الفلاح (2) ، والمسبعات العشر (3) ، والمعشرات التسع (4) ووظيفة الشيخ زروق (5) ، والحزب الكبير (6) .

وثانيها في العشي . ويكتفون فيه بالمسبعات العشر ، وبوظيفة الشيخ زروق بابدال عبارات : أصبحت وأصبحنا وما أصبح بعبارات تناسب العشي وهي : أمسيت وأمسينا وما أمسيت (7) .

---

(1) نفس المصدر السابق .
(2) الزاوية الدلائية : ص 61 وص 275 .
(3) نفس المصدر : ص 60 .
(4) نفس المصدر السابق .
(5) نفس المصدر السابق .
(6) نفس المصدر السابق .
(7) نفس المصدر السابق : ص 62 .

وثالثها بعد صلاة المغرب ، ويذكرون فيه حزب الفلاح ، ثم حسبنا الله ونعم الوكيل سبعين مرة (1) ، ثم صلاة الشيخ عبد السلام بن مشيش (2) .

وما أن أسس أبو المحاسن الفاسي زاويته بحي المخفية حتى نهض أخوه وتلميذه أبو زيد عبد الرحمان بن محمد الفاسي المشهور بالعارف ، بتأسيس زاوية أخرى على غرار زاوية أخيه وسنته ومنهجه ، في حي آخر غير الذي استقر فيه أبو المحاسن ، وهو حي القلقليين بفاس .

وما أن توفي أبو زيد هذا حتى خلفه فيها حفيد أخيه وأخص تلاميذه ، وهو شيخ الجماعة في عصره ، عبد القادر بن علي بن أبي المحاسن الفاسي . فنالت منه الزاوية العناية البالغة . وأقام فيها بجوار حلقات الذكر والتربية حلقات لتدريس العلوم .

أما نشاطه العلمي فقد مرت الإشارة إليه في الحديث على الحياة الثقافية المغربية بفاس في ذلك العصر . وأما نشاطه الصوفي فينحصر في إقبال المريدين عليه والتفافهم حوله يلقنهم ويربيهم ويعلمهم الأذكار والأوراد ليرتلوها في مواعد معينة من اليوم . فكان المريدون في عهده يجتمعون مرتين في اليوم لقراءة تلك الأحزاب وتلاوة هاتيك الأذكار .

أما موعد اللقاء الأول من اليوم فقد كان بعد صلاة الصبح الى طلوع الشمس يجتمعون هناك ليقرؤوا فيه حزب الغداة (3) وينصرفون .

وأما موعد الاجتماع الثاني فقد كان بعد صلاة المغرب ، **أني** يقرؤون حزب الفلاح وحزب الشيخ الجيلاني (4) وصلاة الشيخ عبد السلام ابن مشيش (5) .

---

(1) نفس المصدر السابق :
(2) نفس المصدر السابق : 62 . ص 275 .
(3) نفس المصدر السابق : ص 62 .
(4) انظر ترجمته في الزاوية الدلائية : ص 63 .
(5) نفس المصدر السابق .

أضف إلى هذه المجالس صبحا ومغربا ، ما كان يعقده المنشدون من حلقات يرددون فيها الأمداح النبوية والأشعار الصوفية بمحضر شيخ الزاوية الشيخ عبد القادر الفاسي . فكانوا « لا يستعملون شيئا من السماع حتى يقدموا قبله تلاوة ما تيسر من الذكر العظيم . وكان يحب كلام الششترى (1) باللحون ، وكلام سيدى عبد الرحمان المجذوب وغيره . ولا ينكر شيئا من ذلك . ولا يحب آلة مع ذلك سدا للذريعة ... وكان يرخص في الرقص ، ولكن لذي حال غالب . ومع ذلك يأمر بالسكون . وينهى عما يؤثر في العقول من السماع . ولا يمنع شيئا في الفرح بالمولد النبوي من الرقص والشطح » (2) .

والذي نلاحظه ونستخلصه مما تقدم أن الزاوية الفاسية ، بحكم استقبالها لمريدين متحضرين ولربما كانوا مشاركين في العلوم ، كانت تكلف هؤلاء المنتسبين إليها والمنخرطين في سلكها بحفظ الأحزاب والوظائف والأذكار المعقدة الطويلة .

الزاوية العياشية :

أما الزاوية العياشية ــ وهي التي تسمى الآن بزاوية سيدى حمزة (3) ، والكائنة بسفح جبل العياشي على ضفة أحد روافد وادي زيز بعيدة عن ميدلت بنحو ستين كيلومتر جنوبا ــ فقد أسسها محمد بن أبي بكر العياشي ، وذلك سنة (1044/34ــ1635) بإشارة من شيخه محمد بن أبي بكر الدلائي .

لقد أسست هذه الزاوية لغاية صوفية على غرار سابقاتها . فكان يجتمع فيها بالمريدين والوافدين عليه من القبائل النائية يطعمهم الطعام ،

---

(1) نفس المصدر السابق .
(2) نفس المصدر السابق .
(3) أي باسم حمزة بن أبي سالم العياشي الذي تولى أمر الزاوية بعد أبيه منشطا لحركاته العلميه وباذلا في سخاء كامل ثروته لاقتناء الكتب واستنساخها لها . الزاوية الدلائية : ص 65 .

ويلقنهم الأوراد ، ويرغبهم في عبادة الله وذكره وتلاوة القرآن والتعبد به . والعيش في فلك الوعظ والإرشاد والهداية إلى سواء السبيل . حتى تكاثر على الزاوية الواردون ، وتزاحم عليها المقبلون والمنتسبون . فضاقت بهم رحاب المسجد خصوصا عند أداء صلاة يوم الجمعة ، مما دعا إلى توسيعه وتجديد بنائه سنة (1066/55—1656) (1) .

وما أن أخذ مكان الشيخ ابنه أبو سالم العياشي حتى اعتنى اعتناء فائقا بتدريس العلوم ، ونشر المعرفة في هاتيك الربوع . وهكذا تتحول الزاوية العياشية في عهد العياشي الابن ، وعلى يديه إلى مركز نشيط يجمع بين حركتين اثنتين تلتقيان حول محور واحد يدور على أساس متين من خدمة الشريعة والحقيقة :

أحداهما : حركة علمية هامة قامت بحاجيات تلك القبائل فزودتها بزاد وافر من العلوم والمعارف الشرعية واللغوية . فتوافدت عليها جماعات من الطلاب استفادوا منها بما شهد لها بفضل القيام آنئذ بالرسالة التثقيفية خير قيام .

والحركة الثانية : حركة صوفية اعتمدت في راجح الظن وغالبه على الطريقة الشاذلية التي هي طريقة الدلائيين الذين كان يدور في فلكهم وضمن دولابهم مؤسس هذه الزاوية الذي قد أوحوا له — كما سبقت الإشارة إليه — بتأسيسها ونشر الحركة الصوفية بواسطتها .

خاتمة

وبهذا الذي سبق الحديث حوله نتبين أن التصوف المغربي في هذا العصر كان استهلاكيا لا إنشائيا ، وأنه لم يتطور على ماكان عليه قبل

---

(1) الزاوية الدلائية : ص 64 — 65 .

هذا العصر في البلاد المغربية ، وأنه كان خلوا من التيارات الفكرية سواء منها النابعة من الأوساط الاجتماعية فيها ومن ذاتها أو المدعوة المشبوهة عادة والتي تأتي غالبا ضمن البضائع المستوردة بموجب الأخذ والعطاء ، والتوريد والتصدير ، وأن هذا التصوف المغربي حركة انطوائية ترمي إلى خدمة الشريعة في نطاق إصلاح الفرد داخل إطار ضيق لا يتجاوز حدود دعوته إلى طاعة ربه كما يفهمها الناس عادة ، وإلى المحافظة على عبادة المولى حسب المنهج والطريقة المألوفين عندهم ، ودون أن يتجاوز في ذلك أيضا حدود القيام بأداء العبادات في ظواهرها من غير إدراك لأغوارها وانتهاء للأبعاد المرادة منها وبلوغ لفهم أسرارها وبواطن مقاصدها وأغراضها ، ولا أن يتجاوز حدود دعوته إلى الإكثار من ذكر الله وتسبيحه والصلاة على نبيه صلى الله عليه وسلم والدعاء والإبتهال إلى الله والتضرع له في مجال ، وإن كان لا يبتعد عن ظواهر السنة ، إلا أنه لا يتجاوز ضوابط الفقهاء من الحرص على المحافظة على إتقان العبادات المحدودة والصيغ المضبوطة والمرات المعدودة ، وفي أوراد معينة كما أوصى بها شيخ الطريقة أو كما كان عليه الآباء والأجداد من غير استيحاء لما في تلك الأذكار من أسرار ومعان هي التي توقظ المشاعر وتثير العبر ، وتحيي النفوس وتبعث فيها الكمالات الانسانية ، من حب الرحمة بالنفس وبالعباد ، ومن التعلق بالله حق التعلق ، ومن الإعتصام به والتصور له تصورا هو أهل له ، به يدرك ويعبد ، وعليه يقدس ويطاع .

والجدير بالملاحظة أيضا أن حركة التصوف هذه ليس فيها كثير انحراف إلى كثير من المستحدثات والبدع ، إذا ما استثنينا ذلك الذي كان من عمل أصحاب الغايات الخسيسة والمطامع القريبة ، الذين أفسدوا على العامة كثيرا من سلوكهم وتفكيرهم وأحاسيسهم وتصوراتهم ، مستغلين تلك السذاجة فيهم والبساطة في عقولهم المحدودة الآفاق والبعيدة عن الثقافة العامة بالدين والمعرفة المعمقة بالله التي تؤثر غالبا على الفكر فتدفعه إلى الابداع والاجتهاد والابتعاد عن الإجترار الذي هو وليد التزام وتتبع خطى السابقين القدامى وتقليدهم من غير أي تصرف ولا زياة فيها ، والذي هو أيضا وليد التلقين الذي لا يستطيع عادة أن ينهض في وجه الخرافات بل وقد

يشجع على الانسياق وراءها وتقبلها بكامل السهولة واليسر ، كما انه لا يستطيع أن يثبت أمام التمويه والتضليل ، بل - تجده على العكس - يستسلم لهما ويسير في ركابهما مسخرا عن حسن نية غالبا في خدمتهما والعمل على نصرتهما .

ولعل هذه الاعتبارات ، مع ما عرف به المغاربة قديما وقبل عصرنا الذي نتحدث عنه بالخصوص من التعلق بالسنة وصاحبها صلى الله عليه وسلم والسير في منهج الإسلام الصحيح اقتفاء لأثر الرعيل الأول من الصحابة والخلفاء الراشدين ، تستطيع أن تفسر لنا الدواعي التي دعت رجال التصوف ، والمشائخ الذين عرفوا بالاستقامة والنزاهة والجدية ، والذين تعرفنا إلى من تضافرت الأقوال على نزاهتهم ونزاهة الجو الذي خلقوه في محيطهم داخل الزوايا التي استعرضنا نماذج منها ، والتي كان لها كبير الأثر في المحافظة على الشريعة والحقيقة في تلك الربوع . فدعتهم إلى أن يتصدوا للبدع وأصحابها ، وأن يتخذوا من أنفسهم حماة للثقافة التقليدية ، ودعاة للوقوف في وجه الضلالة والزيغ والعدوان .

ولعل تلبد الغيوم السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، ولعل الخشية مما ينتظر المغرب - إذا ما استمر في الطريق الذي رسمته وعبدته له تلك الظروف أيضا - قد دعت هؤلاء جميعهم إلى العمل على إنقاذ من يستجيب لدعوتهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

ثم إن هذا الذي تقدم شرحه والوقوف عليه من مظاهر تصوف القوم وخصائصه وما اشتمل عليه من تعلق بالموجود وبعد عن الإبداع الشخصي والاجتهاد النظري فيما لا يخرج عن حدود الشريعة ، ولا يتجاوز مظاهرها إلى استخلاص أبعادها والغوص في أغوارها استخلاصا مطبوعا بالطابع الشخصي أيضا ، إن هذا الذي تقدم فيه ما يؤكد صحة ما ذهبنا إليه مما اشتهر به المغاربة آنئذ وبصفة عامة من الميل إلى المحافظة على ما وصل إليهم من علوم شرعية تستند إلى الرواية ، وليس فيها كثير تصرف ودراية ، مكتفين في نشاطهم الفكري والعقائدي والصوفي بما يصلهم وصلا وثيقا ومحكما بالسلفية وما فيها من كثير الاعتماد على النصوص المستمدة من

الكتاب والسنة بما انتهت إليه على يد المجتهدين الأولين مع الميل إلى عمل أهل المدينة والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم في تقليد والتزام .

ومن أجل هذا الميل منهم كان المذهب المعتمد عندهم — وهو المذهب الوحيد في البلاد دون سواه — مذهب إمام أهل المدينة أعني به الإمام مالكا رضي الله عنه ، وكان مذهبهم الاعتقادي الكلامي مذهب الإمام الأشعري من أئمة أهل السنة والجماعة . فليس مستبعدا — والحالة تلك — أن يكون مذهبهم الصوفي سائرا في المنهج القريب من المذهبين ، والذي يتمثل في طريقة الإمام الجنيد التي أخذ منها الإمام الشاذلي ومن سار على منواله من المتصوفة الذين تنتظم منهم سلسلة السند إليه من أمثال الإمامين العارفين : الجزولي والتباع (1) وأضرابهما .

وبالجملة — وبعد إلقاء هذه النظرة على ما أوحى لنا به كتاب المحاضرات — يمكننا أن ننتهي إلى أن الذي مر بنا حول التصوف المغربي في المغرب الأقصى وفي القرن الحادي عشر الهجري لا يمكن أن نستخلص منه مدرسة فكرية ، ولا فلسفة عقائدية ، ولا سلوكا نظريا ، ولا اقتباسا ولا مزجا وتأليفا وتنسيقا ، وإنما هو مجرد التفاف الناس حول أنفسهم وحول زاوية وضريح ، بقيادة شيخ يعلمهم ويرشدهم ويلقنهم ويربيهم على إقامة المجالس وتلاوة الأذكار وقراءة الأحزاب ، والدعوة إلى طاعة الله سبحانه على الطريقة المألوفة التي سبقت الإشارة إليها ، وعلى المنهج الذي كنا ذكرنا أنه **لا يبعد** في الكثير من حالاته عن السنة النبوية الشريفة . كل هذا إذا ما استثنينا البدع التي ابتدعت من أمثال إقامة المراكز الخاصة لإقامة العبادة وعقد مجالس الذكر ، والتي هي ليست بالمساجد بالمعنى الإسلامي المتعارف عليه ، مع أن أصحابها يعطونها ما للمساجد أو قريبا منه من حرمة وقدسية . تلك هي التي نسميها بالزوايا والتي ينتسب إليها كل منخرط في فلك الشيخ المؤسس لها أو الساهر عليها والتي قد شاع

---

(1) انظر ترجمتهما في الزاوية الدلائية : ص 48 .

فيها ، فيما بعد ، السماع والإنشاد والرقص وما يتبعها من البدع التي لاقت الكثير من نكير الفقهاء والعلماء .

وبذلك يعرف أنه ، لولا ما كان من أمر المشعوذين الإستغلاليين **الذين طعنوا متصوفة** المغرب بما برهنوا به هم على خسة أنفسهم ودناءة نفوسهم وقلة مرؤوتهم ورخص ضمائرهم ، وبما قاموا به من استغلال فتدنيس لمظاهر الانتساب والسلوك الذى كان الناس يسلكونه ابتغاء مرضاة الله ، وتعلقا بطاعته وطمعا في التقرب إليه ، لولا ذلك وغيره من السلوك الشخصي الغير المشرف والذى قد اتخذ ألوانا وأشكالا مزرية ، فكانت عاقبة أمره أن افتضح أصحابه بالكشف عنهم ومطاردتهم والتشهير بهم لكانت الطرقية في المغرب الأقصى وفي ذلك العصر بالخصوص عبارة عن اجتماع **على الطاعة وإقامة** لسنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتحريض للعامة على الإكثار من عبادة الله تعالى . وهي — في أعتقد — مهمة جليلة القدر ، رفيعة المنزلة وثقيلة في الميزان ، خصوصا إذا أضفنا إليها الدعوة الجادة إلى الجهاد في سبيل الله والقيام عليه ، ومباشرته لإعلاء كلمة الله ونصرة دينه الحنيف ونشر رايته على كافة الربوع بالبلاد . كما هو شأن أولائك الأئمة من مشائخ الطرق والزوايا الآنفة الذكر . فكان منهم ، وممن شاكلهم وكان على مستوى إخلاصهم وإيمانهم ، دفع الأعداء . وكان منهم تجسيم القضاء على حركة الاحتلال الأجنبي . وكان أيضا الحد من استخفاف بعض أولي الأمر بشؤون بلادهم وتفريطهم فيها شيئا فشيئا ، سعيا وراء إشباع أطماعهم وتثبيت أركان سلطانهم الموهوم . وكانت في النهاية جيوش المجاهدين الجرارة التي ملأت السهل والجبل ، والتي قد أحاطت بالأعداء من كل جانب . حتى كانت جولة العلويين ، بعد جولة العياشي بسلا وجولة الدلائيين في الأطلس ، فوحدت البلاد وعملت على طرد الأجنبي . ومازالت دولتهم قائمة إلى اليوم تمسك بزمام أمر البلاد أملا في تحقيق الأهداف القومية ، وفي تحقيق الكرامة وجمع شتات المغرب الأقصى على صعيد إسلامي موحد إن شاء الله .

اليـوسى المتصـوف

عوامل تصوف اليـوسي :

ما من شك في أن غراس النشـأة الأولى في الإنسان لها كـامل التـأثير عليه بما يشـده إلى المسلك الذي يتناسب معهـا فيما يتعلق بمسار سلوكـه ومعاملاته واتجاهاته المختلفة في مستقبل أيـامه ، وبمـا يشده أيضا إلى المنهج الذي يسير على هدى تعاليمه بمقتضاهـا في حياته كلهـا من جميع أطرافهـا وحاجـاتها واتجاهاتها سواء منهـا الروحيـة الاعتقاديـة أو العمليـة الدنيويـة ، مهمـا كانت المؤثرات الطارئة والعوامل الجديدة التي تدخل عليه في تـكونه من بعد ، من طريق الاحتكاك والدراسة أو من غيرهما بعد مفعول طابـع تلك النشأة الأولى ، حتى أنه إذا ما تخيل المرء أن لهذه المؤثرات الطارئـة والعوامل الحديثة المتسلطة عليه ، تـكييفا لسلوكه السابق ، وسطانا على نفسه المتشربة مما تربت عليه وتملته وعرفت الوجود معه ، فـإن الحقيقة والواقع ينبهانه إلى زيف هذا التخيل ويؤكدان أن هذه التخيلات لا تستطيع ، مهما أوتيت من قوة العناصر وعدة العناية ، أن تنتهي إلى العمق وأن تمتد إلى جذور تلك الغراس الأصيلة بالقلع والإستئصال بقـدر مـالهـا من الصبغة الظـاهرية السطحية الطـافية التي لا تتجاوز في مفعولهـا عملية التعديل والتهذيب والتقويم والتشذيب ، التي يسهل التخلص منهـا وتعطيل آثـارها والانتـكاس

عنهـا ، إذا ما وجدت جذور النشأة الأولى ما يساعدها من المتنفسات على التغلب والقهر والسيادة ، والوقوف في وجه كل تلك المؤثرات الخارجية الجانبية الدخيلة الأخرى .

ومن هنا جاء ما يعبر عنه بالأصالة والمقومات الشخصية التي تعود إلى الفطرة من جهة ، وإلى الوراثة من جهة أخرى ، وإلى عناصر التربية الأولى من جهة ثالثة . وتلك هي الغراس التي أشرنا إليها والتي إن وجدت تربة بكرا . ودواخل طيبة سليمة ، وخلوا من الطوارىء والمعوقات رافقت الطبع واستوت معه قائمة وثابتة ، ونفخت فيه من القوة والصلابة والقدرة على مقاومة الطفيليات ، حتى يصبح لها ماله من القوة والسلطان الذي يغالب به التطبع فيكون له عليه الفوز والغلبة بحكم التربة الخصبة والتنشئة القويمة والتمكن المحكم ، مما يكون مصداقا من قريب أو من بعيد لما بات من المعلوم بالضرورة ، ومن المسلمات التي أكدتها الحياة : أن من شب على شيء شاب عليه .

وتبعا لذلك . فانه قد يساعدنا على إدراك العناصر التي انتهت باليوسي إلى ما انتهت إليه في حياته العلمية والسلوكية والصوفية ، ما احتضن الرجل منذ فجر حياته من ظروف زرعت فيه بذور التفتح على الحقيقة ومؤهلات الدواعي للسير في طريق القوم ومقومات الإنطلاق في مسيرة السالكين ، واللحاق بالعارفين ، بانتهاج طريقة صافية ناصعة لا تدركها شوائب الريب ، وبانتهاء الى تسليم خالص كامل ، وبوصول إلى انقياد مطلق لا مجال له في الدخول مداخل الظنون والريب والأوهام ، ولا مجال له في تلبيس العقيدة بما ليس منها وبما قد تداوسه من ليس له من أسباب المناعة ما تهيأ لليوسي وأمثاله مستمداله من الثقافات الدخلية فوقع في الزيغ والضلال . تلك الثقافات التي كانت تعتلج داخل بعض الأجواء الشرقية بالخصوص من ديانات وفرق عقائدية أخرى قائمة على غير الديانة الإسلامية وبعيدة كل البعد عن تعاليم الإسلام وبساطته الهادئة الهادفة التي يتولد عنها إيمان مكين لا تؤثر فيه التيارات العقلية المريضة ولا الخلافات الجدلية الفلسفية التي تقوم على القياسات المنطقية التي تؤدي إلى قياس الغائب

على الحاضر في مالا إحاطة للعقل به ، فلا يستطيع أن يدركه إلا إذا اتخذ رائده إليه الوحي الالاهي الذي ليس له من طريق إلا الأنبياء والمرسلون . وتلك هي العناصر التي أثرت كما ذكرنا في كثير من الناس اشتغلوا بالعقيدة في المجالات القاصرة ، فراحوا يبحثون عن الحقيقة في غير مضانها من خلال تلك الإمكانيات البشرية المحدودة التي استفادوها من دراساتهم وأبحاثهم ، ومن الأوساط التي شبوا داخلها وترعرعوا فيها ، فوقعوا في المزالق الشائكة التي ليس من السهل الخروج منها والسلامة من عواقبها ، والتي لم يحل أبو علي اليوسي على حال بواديها .

وهكذا يمكّننا ذلك المحيط الذي احتضن الرجل أيامه الأولى من التعرف إلى ما يحيط بالعوامل التي قادته إلى ما انحاز إليه وعرف به من حياة جمعت بين الشريعة والحقيقة في منهج طرقي صوفي عملي بعيد عن البدع والأهواء والضلالات ، ومعتمد على التقوى والعبادة وانتهاج المنهج السلفي السني الذي انتسب إليه متبعا في ذلك الطريقة الشاذلية على غرار شيخه وأستاذه أبي عبد الله محمد بن ناصر ، شيخ الزاوية الناصرية بتمغروت .

فلقد كان مولد الرجل في بيئة متدينة يرعاها رجل « مع كونه أميا كان رجلاً متدينا ، مخالطا لأهل الخير ، محبا للصالحين ، زوارا لهم » (1) . زكّى هذه الروح في البيئة الأولى التي أنجبت الرجل ، والتي هي زيادة على ما سبق ، بيئة بدوية صحراوية ، تعيش على قريب من الفطرة والسذاجة ، زكاها أن هذا الابن يحتضنه أول ما يحتضنه — في رفقة وملازمة — أستاذ لا يبعد عن ذلك الجو ، بل هو إلى غيره أبعد . هذا الأستاذ هو أبو إسحاق إبرهيم بن يوسف الحداد اليوسي الذي استفاد منه — علاوة على دراسة الأولى وما إشتملت عليه من العناية بالقرآن تلاوة وحفظا — ما طبع هذا الأستاذ عليه من جنوح للأولياء ، وميل إلى الصالحين وزيارتهم والتبرك بهم ، وتعلق بدراسة مآثر المتصوفين وما طبعوا عليه من سلوك وتعلق ، حتى

(1) المحاضرات : ص 29 .

انتقشت تلك المآثر في عقل هذا الناشيء الجديد ، ووقعت حلاوتها في قلبه مما جاء ذكره على لسان اليوسي نفسه حينما قال متحدثا على أستاذه هذا وما انعكس منه عليه : « ... ومن أحسن ما استفدت على يديه أن كان عنده مجموع فيه المورد العذب للجوزي كأوس القرني وإبراهيم بن أدهم وإبراهيم الخواص وغيرهم رضي الله عن جميعهم ونفعنا بهم . فانتقشت تلك المآثر في عقلي ووقعت حلاوتها في قلبي . فكان ذلك بذرا لما أنعم الله تعالى به من الإيمان بالطريقة ومحبة أهلها والتسليم لهم ... » (1) .

ثم بعد ذلك يتحول عن هذا الأستاذ ليلتقي بأوساط أخرى لم تبتعد عن هذا الذي سبقها ، لاشتمالها في غالبها على دروس الوسائل والمقاصد . وإذا به في نفس الوسط أو قريب منه تسيطر عليه هاتيك المؤثرات التي لم تدع لغيرها مجالا يشاركها في التسلط عليه والتمكن منه . حتى تلقفته الأيدي وسلمته إلى شيخه في الدين الذي ينعته بقوله : « شيخ الإسلام وعلم الأعلام » والذي حلاه غير ما مرة بقوله : « شيخنا البركة ، وقدوتنا في السكون والحركة ، أبي عبد الله محمد بن ناصر» (2) . والذي جاء في معرض حديث اليوسي عنه ، وهو يتحدث عمن استفاد منهم من الشيوخ خصوصا منهم أولائك الذين كان لهم التأثير البالغ عليه في طريق القوم قوله : « شيخنا وأستاذنا وبركتنا ، علم الأعلام ، ومصباح الظلام ، وقدوة الأنام وشيخ الإسلام ، أبو عبد الله سيدي محمد بن محمد بن أحمد ابن محمد بن الحسين بن ناصر ... وهذا الشيخ هو الذي أخذت عنه العهد والورد . وإليه ننتسب . وكل ما نذكره سواه فإنه على طريق انتفاع ... » (3) .

فالبيئة التي ولد فيها ، والجو الصحراوي الذي ترعرع فيه ، والعقلية العلمية المطبوعة بطابع البداوة والسذاجة والانغلاق النسبي المتأثر بالظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تعيش عليها البلاد ، كل هذه كان لها الأثر البالغ في حياة اليوسي الدينية الصوفية .

---

(1) الفهرست : ص 134 .
(2) المحاضرات : 76 .
(3) الفهرست : ص 157 .

ولعل هذا ما يفسر لنا مظاهر السذاجة والبساطة في كثير مما يعرضه علينا الرجل من أحداث رويت له ، ومن وقائع كان لها شاهد عيان ، وقد كان لكل منها مسيس العلاقة بالجو الطرقي والمنهج الصوفي . فيتقبلها بدون تعقيب عليها غالبا ، ولا تحليل لها تحليلا منطقيا ، ولا تفسير لها تفسيرا معقولا ، واقفا منها موقفا لا يتناسب مع مقام اليوسي المتضلع العالم المناظر المتبحر الذى يطالعك بعقلية نابغة في المباحث النظرية ، والتعليلات الجدلية ، والتحليلات العلمية المعقدة العالية .

التبرك بآثار الصالحين :

والذي يبدو جليا أن هذه البساطة تتجلى بالخصوص عندما يجره الحديث إلى ما يتعلق بالأولياء والصالحين والتبرك بهم ؛ إذ يغالي في ذلك مغالاة تلفت النظر ، وتبعث العجب والحيرة ، وتدعو للانتباه . وإن كان كل ذلك يدل على مدى ما في الرجل من صلاح وتعلق بالله ، ومحبة في أولائك الأولياء والصالحين وإغراق في الزهد والتصوف العملي عبادة وذكرا . حتى إنه ما كان يلح ـ لا كل الإلحاح ولا حتى بعضه ـ على دعوة العقل وتحكيمه سبرا وتحليلا وتعليلا ، مع ما له من تمحيص ومنطق وعلم ودقة نظر في مثل هذه المجالات التي تتصل بالغيبيات وترتبط بالإيمان بما لا مجال لوصول الإدراك العقلي إلى كنهه والخوض فيه .

لقد عرف اليوسي بكثرة الزيارات لأضرحة الأولياء ورباطاتهم . يتحدث هو بذلك عن نفسه ويذكره الناس عنه . وبذلك أحيا كثيرا من الرباطات بتعرفه إليها وتعريفه لها (1) . والظاهر أن من أبرز الدوافع له على أن يسلك هذا السلوك ما جاء عبر تعرضه بالكلام إلى رباط شاكر مما يشعر بما يقارب العلية مما يوحي بالأسباب التي رغبته في التردد على أمثاله من كل ما هو مقر لولي أو ملتقى للصالحين . فهو إذن متعطش التبرك بالأماكن التي

(1) المحاضرات : ص 37 .

كانت مجامع لأهل الخير والصلاح . ذلك ما ذكره بتلك المناسبة المشار إليها حين قال عن هذا الرباط المغربي : إنه « كان مجمعا للصالحين من قديم ، ولا سيما في رمضان يغدون إليه من كل أوب » (1) . ويسوقه هذا الحديث إلى أن ينقل عن كتاب التشوف قصة عن امرأة صالحة تسمى منية الدكالية ، هي غريبة في بابها أو مثيرة لبعض التساؤلات التي يظهر أنها لم تلق ما يثيرها عند الرجل الذي تقبل تلك القصة قبول الرضى والتسليم ، كأن الذي جاء فيها أمر طبيعي وعادي . إنه يذكر في كتابه المحاضرات أن صاحب التشوف حكى « عن منية الدكالية رضي الله عنها أنها حضرت ذات مرة في رباط شاكر . فقالت لمن معها : إنه حضر هذا العام في هذا الرباط ألف امرأة من الأولياء » ، بل إن اليوسي يعقب بعد ذلك على هذا الذي نقله فيقول : « فانظر إلى عدد النساء . فكيف بالرجال ؟ فلا شك أن هذا الموضع موضع بركة ومجمع خير » (2) . ويواصل حديثه هذا دون أن يسترعي انتباهه في هذا الذي نقله شيء يثير عنده بعض الشك والتردد والاستغراب كما أسلفنا .

ومن الأشياء العجيب أمرها ما نقله اليوسي في كتابه المحاضرات أيضا عن نفسه التي حشرها زمرة العوام فيما يمكن أن يقع فيه أمثالهم وليس أمثاله من العلية المنتخبة فكرا ومنزلة . وذلك لما شاع بين الناس عند ما كان بسجلماسة من أنه قد ظهر رجل في المدينة وقد خف القوم إليه . فيقص علينا هذا الحدث العجيب دونما تحرج مما جاء فيه فيقول : « ... وخرجنا مع الناس . فقائل يقول : ولي من أولياء الله . وآخر يقول : صاحب الوقت . فلما اشتد الزحام على الرجل دخل في قبة في المقابر وأخرج كفه من طاق في القبة يقبلها الناس وينصرفون . وكان كل من قبل الكف كتفى ورأى أنه قضى الحاجة . فقبلناه وانصرفنا » (3) .

---

(1) نفس المصدر السابق .
(2) نفس المصدر السابق .
(3) المحاضرات : ص 38 .

وهكذا يحشر اليوسي نفسه ضمن العامة فيقبل على الرجل ويقبل كفه وينصرف بعد أن قضى الحاجة . وقبل أن يتعرف إلى هوية الرجل — على الأقل — هذا الذي ظهر فيما بعد « أنه رجل مصاب . وكان يشتغل باستخدام الجان » (1) .

والجدير بالذكر أيضا أننا نجد اليوسي بعد هذا في موقف بعيد عن موقفه وهو يقبل كف هذا المشعوذ . وهو موقف المعتذر الآسف . نجده يحذر كل الحذر من الوقوع في حبائل أدعياء الطرقية الذين امتلأت بهم الرحاب ، فصار من الصعب التمييز بين الصادقين منهم والمنتحلين ويشنع بهم فيقول مثلا : « فكم تظاهر بالخير من لا خير فيه من مجنون أو معتوه أو موسوس أو ملبس فيقع به الإغترار للجهلة الأغمار ... فالحذر مطلوب ، ولا سيما فيما نحن فيه من آخر الزمان الذي استولى فيه الفساد على الصلاح والهوى على الحق ، والبدعة على السنة » (2) .

ثم هو عندما يسوقه الحديث في كتابه المحاضرات إلى من اشتهر باستجابة دعائه من الأولياء والعارفين والأقطاب ، من أمثال الشيخ عبد السلام بن مشيش والشيخ أبي يعزى من صلحاء المغرب يتحدث لنا حديثا لا يخلو من الإثارة والإستغراب أيضا فيقول مثلا : « وقد شاهدت المولى إدريس رضي الله عنه أيام مقامي في مدينة فاس ترياقا مجربا في كل ما أنزل به » (3) . كما يذكر القصتين التاليتين على شبه طريق الاستشهاد وإقامة الدليل على صدق وسلامة ما ذهب إليه من الاقتناع والاعتقاد متوخيا في ذلك النسق السابق في القبول والتسليم لمثل هذه الانماط من القضايا التي هي أقرب الى الأوهام والخرافات في نظر العقل وطرقه الاستدلالية المنطقية منها الى شيء آخر فيقول : « وكانت أهلي أيام كنا بالزاوية البكرية(4)قد تراخت عنها الولادة . فدخلها من ذلك غم عظيم . فأصبحت ذات يوم فأخبرت أنها رأت

---

(1) نفس المصدر السابق .
(2) نفس المصدر : ص 39 .
(3) نفس المصدر السابق : ص 61 .
(4) وهي الزاوية الدلائية .

أنها ذهبت إلى مقام سيدي أبي علي الفجائي . قالت : فوجدته جالسا وأنا في غاية العطش . فإذا حوله عين ترشح منها ماء قليل لا يغني . قالت : فقلت : ياسيدي ! ماهذا ؟ جئت إليك عطشى رجاء أن أشرب . أفأرجع كما جئت . قال : لا . إن الماء ثَمّ . انبشي يخرج الماء . قالت : فنبشت بيدي . فخرج الماء . وشربت حتى رويت . وطلبت مني أن نزووه وأن نطعم عنده طعاما . ففعلنا . فولد ولدنا محمد الكبير أصلحه الله وأمتع به . ولما نزلنا بالزاوية المرة الثانية فقفلنا من مدينة مراكش ، وكانت لنا بنية عجزت عن النهوض ، وهي في سن من يمشي . فظنناها مقعدة . فذهبت الخدم إليه وزوروها . فقامت بالفور على رجلها تمشي » (1) . ثم يعقب على هذا بما فيه التسليم السابق والقبول المتقدم في ارتياح لشبه ترتب تلك المسببات على أسبابها المذكورة قبلها ، موهما بما للولي من تصرف وما للزائر من التمكن من قضاء الحوائج فيذكر : « وأمثال هذه الأمور لو تتبعنا منها ما رأينا وما سمعنا لملأنا بها الدواوين . نعم رأيت لبعضهم أن الولي إذا مات انقطع تصرفه من الكون . وما يحصل لزائره مثلا إنما يحصل له على يد قطب الوقت بحسب درجة ذلك الولي » (2) .

وعلى كل حال فإن هذه السذاجة التي كاشفتنا بها هذه الأمثلة من مواقف اليوسي لا تنتهي بنا إلى حد الحكم بتجريد الرجل من سلامة السلوك الذي سلكه في حياته الصوفية . وإنما هي تنتهي بنا إلى الوقوف على تأثير الروح السائدة في ذلك العصر عليه مع ما احتفاظ به منذ طفولته الأولى وشبابه المبكر مما جاء ضمن عادات قومه وتقاليدهم في نطاق فهمهم لكثير من الظواهر المحمولة على الدين وعلى أوباب القلوب وما فيها من إيمان كإيمان العجائز يصدر من الآباء فيتقبله الأبناء ويربون عليه . حتى إذا ما صلحت أحوالهم واستقامت حياتهم وسايرهم الجو الذي عرفوه من قبل بقيت تلك الآثار القديمة عالقة بهم ، مؤثرة على

---

(1) المحاضرات : ص 62 .

(2) نفس المصدر السابق .

تصوراتهم فلا يبتعدون ـ مهما حاولوا ذلك ـ عما كان رائجا وسائدا في تلك الأوساط المعهودة عندهم والمعروفة لديهم ، متأثرين بها ومطبوعين عليها . وهو ما كان يبدو غالبا من الآثار لتلك العوامل التي بدت في هذا المحيط متسلطة على الرجل وعلى غيره من أمثاله الذين عرفوا بالاستقامة والتقوى والصلاح ، والتي توضح حياة الطرق والزوايا آنئذ وعند هؤلاء الأقوام بالخصوص . كما توضح طريقة معالجتها للوقوف على الحقيقة ، وعلى الغاية التي تعمل للوصول إليها في تربية المريدين حتى يتمكنوا من تطهير النفس وتخليصها مما سوى الله ، فتقبل على عبادته وتخلص في طاعته ، وتحرص على تقواه وتعمل على مرضاته في مجموعات تتقارب في المنهج وتتحد في الوصول . فكان جلها لا يبتعد في طريقه عن المنهج السني السلفي . على الطريقة والمنهج السائدين في ذلك العصر والمعروفين لطرقية ذلك الزمان ومتصوفته .

طريقته في الإنتساب :

ومعلوم أن اليوسي قد قضى جل حياته غير بعيد عن الزوايا ، سواء عند إقامته في الزاوية الدلائية أو عند اتصاله بشيخه ، شيخ الزاوية الناصرية الذي كان يقر له اليوسي بالفضل في حياته الدينية الصوفية ، ويصرح في مباهاة واعتزاز بالإنتساب إليه متصلا به ، مترددا عليه ، مخلصا له معظما ومبجلا .

ومن هنا نتبين أن الطريقة التي كان يعتنقها ويربي المريدين عليها هي الطريقة الشاذلية الزروقية التي هي طريقة شيخه ابن ناصر هذا ، والتي جاء ذكرها في حديثنا السابق على الزاويتين الدلائية والناصرية .

فلقد سار الإمام أبو علي اليوسي على هذه الطريقة ومنهجها السني ، مقتفيا في ذلك أثر شيخه ، مشتغلا بالأوراد (1) التي ـ وإن لم يرد نصها

---

(1) المحاضرات : ص 161 .

ولا شيء منها في ماخلفه لنا من آثاره الكثيرة التي وقفنا عليها . كما لم يتعرض إلى مضمونها ولا فحواها أحد ممن كتب على اليوسي وسمحت لنا الظروف بالوقوف على شيء من تحريراته حوله – إلا أنه يغلب على الظن فيها أنها التي كان يشير بها أستاذه أو يرشد إليها المقبلين عليه والغارفين من حياضه .

وما من شك في أن أبا علي اليوسي كان يلقن الناس الأوراد في حياة شيخه وبعد وفاته أيضا . يشهد لهذا الذي ذكرناه أمران اثنان : أحدهما يفصح عنه ماجاء في حديث أحمد بن عبد القادر التستاوتي (1) إلى الشيخ ابن ناصر من أن اليوسي يكره أن يعتقد فيه المشيخة من أخذ عنه الورد (2) . وثانيهما ما أثبتته المصادر من أن تلقينه للأوراد كان بإذن من شيخه له نيابة عنه (3) . أما بعد وفاة شيخه ابن ناصر فقد كفانا هو نفسه مؤونة ذلك ؛ إذ أثبت في كتابه المحاضرات اشتغاله بتلقين الأوراد للناس وتعليمهم ما يحتاجون إليه ، وذلك بقوله : « إنا بعد وفاة الأستاذ المحقق السني أبي عبد الله ابن ناصر رضي الله عنه لم نزل نسعى في نفع الناس بتعليم ما يحتاجون من دينهم ، ويحتاجون من أوراد النفل والأذكار التي يتزودون بها لمعادهم ويتحببون بها ، ويتقرون إلى ربهم ، عاملين في ذلك على وجه المواخاة والمعاونة على البر والنصيحة لا على وجه المشيخة ، وعلى وجه التعلم والإرشاد لا على وجه التنزيه » (4) .

أما كراهيته لنسبة المشيخة إليه فقد بين سببها جواب ابن ناصر لأحمد التستاوتي المتقدم الذكر في حديثه السابق الذي جرى بينهما حول اليوسي ، والذي جاء فيه : « فقلت له : من أخذ عنه الورد (أي عن اليوسي) يعتقد فيه المشيخة وهو يكره ذلك . فقال (أي ابن ناصر) لي : لا يضره ذلك مع

---

(1) طلعة المشتري : ج 1 ، ص 265 وما بعدها .
(2) نفس المصدر السابق : ج 1 ، ص 295 .
(3) صفوة من انتشر : ص 208 .
(4) المحاضرات : ص 161 .

التبري . وطريقتنا لا نسند الأمر فيها إلينا ، وإنما نسنده إلى أشياخنا قبلنا » (1) . فكراهيته لذلك إذن لم تكن في الغالب إلا من تهيب الرجل لدرجة المشيخة وعلو منزلتها عنده كما يفهم من الجواب .

وإذا ما بخلت المصادر علينا فلم تمدنا بشيء عن منهجه في تربيته للمتسببين وما يتوخاه لذلك ، فاننا لا نستبعد حسب ما يظهر من خلال مراسلاته أنه كان يساير شيخه حتى في هذا المجال فيتبع طريقته في النصح والتوجيه والإرشاد ، مستفيدا مما كان يجري بين الرجل وأستاذه وما كان يقوم بينهما من مراسلات توجيهية تعليمية تربوية .

فبينما نجد رسائل ابن ناصر التي يتوجه بها إلى اليوسي تعتني فيما تعتني به بدعوته إلى التعلق بالله وعدم خشية سواه ، وبدعوته أيضا إلى الاتكال على الله ، وعدم تضييع الوقت في القيل والقال ومخالطة من لاخلاق له من الرجال (2) ، بينما نجد الشيخ يتوجه إلى تلميذه اليوسي بما تقدمت الإشارة إليه نجد اليوسي نفسه يفعل قريبا من ذلك في رسائله التي يتوجه بها إلى مريديه وسائليه فلا يبتعد عن ذلك السبيل ، بل ولربما اعتمد كثيرا من نصائحه أيضا . فهو يوصي المريدين كذلك بالتقوى والطاعة ، وبالتوبة النصوح ، وبالتحابب والعمل والمجاهدة ، وبحفظ حرمة المسلمين ، خصوصا منهم أهل الدين وسائر المتسببين (3) . كما يوصيهم أيضا بتجديد التوبة خصوصا في السحر ، وبزيارة الصالحين ، وباتخاذ ورد من كتب القوم لمطالعته والتعبد به في الخلوات (4) .

أفكاره :

ولعلنا إذا ما وقفنا على مقتطفات من رسالته التي توجه بها إلى من لم يسمهم من بعض الإخوان ، والمسماة بالنصيحة المباركة ، قد نتمكن

(1) طلعة المشتري : ج 1 . ص 295 .
(2) طلعة المشتري : 174 .
(3) الرسالة الآسفية : ص 10 — 13 ؛ رسالة اليوسي إلى من أسماه بأبي العباس .
(4) رسالته إلى المراكشي : ص 202 — 207 .

من التعرف إلى كثير من سلوكه الصوفي ومـا يحمله بين جنبيه من آراء وأفـكار ونظريات تتعلق بسلوك المريـدين وتعريفهم بمنزلة شيوخهم الذين ينتسبون إليهم ؛ إذ إنها قد إستوعبت الـكثير من توجيهاته الصوفيـة وآرائه حول الشيوخ ورسالاتهم .

فلقد بين فيهـا أن التصوف ينحصر في العمل الصالح وتقوى الله وعبادته . فهو بذلك عملي لا نظري . أساسه التوبـة النصوح ، ثم الإقبال على الله بالطاعة والعبـادة ، مشيراً على المريد بأن « لا يدخل في يد شيخـه حتى يعلم أنـه على الصراط المستقيم . وذلك بمخالطته أو بشهـادة أهل الحق . وحتى يجد له في قلبه مع ذلك نية صالحة ، واعتقادا وحرمة . فإذا اجتمع له ذلك ودخل في يده لم يبق له معه إلا الإذعـان والتسليم والاعتقاد الجميل ، والنظر إليه بعين الرضى في كل شيء ، واستحسـان كل ما يبرز منه وإن خالف عقله هو أو خالف العـادة . ومتى رأى منه ما يكره جعل له وجهـا من التأويل . فان عجز أحـال بالقصور على نفسه ، واعتقد أن له وجها حسنا في نقسه . وإذا كان هذا حقه مع سائر الإخوان وسائر المؤمنين ، فـكيف مع الشيخ . وليتـأدب معه الأدب البـالغ . فلا يطـأ سجـادته . ولا يجلس في مـكانه . ولا يلبس ثوبـا لبسه . ولا يتزوج زوجة طلقهـا أو مات عنها إلى غير ذلك من كل ما يستحسن شرعـا أو عـادة ما لم يـأمر الشيخ بشيء من ذلك أمرا جازما فيفعـل ، وإلا قدم الأدب على الأمر » (1) .

ولعل اليوسي في هذا الموضوع بالذات قد استقام له أن يتخذ من كمال الأدب الذي يلزم التـأسي فيه بمـا كـان للنبي صلى الله عليه وسلم من حرمة الأستـاذ الـكامل المتوفر على عوامل الاحترام والإكبـار والإجلال والتقديس بماله من فضل على أتبـاعه فيما إستفـادوه منه من مصـالحهم الدنيويـة ومصالحهم الأخرويـة العـائدة عليهـا ، وهو الأدب الذي يوجب على المنتسب أن لا يقوم بمقتضاه بما يؤذي – من قريب أو من بعيد – الأستاذ الأعظم صلى الله عليه وسلم ومن له به شبه في مهمته التربويـة التعليمية التهذيبية .

---

(1) النصيحة المباركة : ورقة (8-أ) وما بعـدها .

ومعلوم أن الله سبحانه وتعالى قال في معرض الحديث عن الآداب المفروضة على المؤمنين مع النبي صلى الله عليه وسلم : « وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا . إن ذلكم كان عند الله عظيما » (1) . ثم بين مدى توعد الذين يؤذون الله ورسوله عليه الصلاة والسلام بقوله تعالى : « إن الذين يؤذون الله و رسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة ، وأعد لهم عذابا مهينا » (2) .

فلعل اليوسي قد اتخذ من ذلك الكمال الأدبي ما استروحه واستوحاه من قداسية العلاقة القائمة بين المريد وشيخه . فأجرى ذلك الذي ورد التشديد فيه بالنسبة للمؤمنين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على المريد والشيخ على طريق التورع والتكريم والأولوية ، باعتبار ما في علاقتهما مما يوجب على الثاني في جانب الأول أن ينزل في حقه معه الأمور العادية التي يستحسن الابتعاد عنها مع عامة الناس منزلة الواجبات التي يتحتم عليه مراعاتها وعدم الاخلال بها والابتعاد عن التقصير فيها . فيرى أنه من كمال الأدب وحسن المعاشرة وتقدير الفضل وأهله أولوية تجنب تزوج زوجة الشيخ بعد فراقه لها إلا بإذنه الصريح تطييبا لنفسه ، ومراعاة لرسالته نحو مريده تربية وتوجيها وإرشادا وتعليما ، على اعتبار أن «كاد المعلم أن يكون رسولا » .

ولهذا نجده في الرسالة نفسها يتوقف بإلحاح أمام مهمة الشيخ التي بها نال هذا التكريم والتقديس والاحترام ، فيعلق هذه المنزلة وما يتبعها من احترام وتعظيم على احترام الشيخ لرسالته وقيامه بها دونما تحريف أو تشويه ، وإلا فهو من الأراذل ومن الشياطين أقرب . يقول اليوسي في حق الشيخ : « ... فاعلموا أن فائدة الشيخ هي الرجوع إلى الله تعالى . فما صحبنا المشائخ إلا ليعرفونا بالله ويردونا إلى الله في كل شيء وإلا أن يقطعونا من كل ما سواه عز وجل حتى عن أنفسهم . فإن الله تعالى هو المعبود وحده لا شريك له . وهو المرجو والمطلوب . ولو قطعونا عن الله وردونا إلى أنفسهم بشيء

(1) سورة الأحزاب : 53 .
(2) سورة الأحزاب : 57 .

زائـد على مجرد التوسل بهم إليه كانوا أولى بـاسم الشيطـان من اسم المشائخ ... » (1) .

ومن أجـل ذلك يجدر بالمريد أن يتـكل على الله ، وأن يعتمد على نفسه للوصول إليه ، وأن لا يعتقد في المشائخ إلا أنهم منـارة تهدى الضـال ، وترشد في الليل الدامس إلى سواء السبيل . « فإن الشيخ ليست في يده جنة ولا نـار ولا دنيـا ولا آخرة ، بل هو عبد مملـوك كسائر العبيد . وإنمـا في يده الولاية على الله ، والإرشاد إليه بالتربية أو الهمة وإنمـا هو بمنزلة الدليل للرفقة والخفير لهـا حتى تصل . فمن عقد العقدة مع الخفير فإنمـا عقدهـا معه ليسير معه . فـإن لم يسر وقعد في مـكانه فهو لاعب لا تنفعه الخفـارة شيئـا . وكذا المريد إنمـا يعرف الشيخ ليدله في طريق الله ويحذر من الشيطـان والنفس ... » (2) . ثم هو بعد هذه الجولة يحاول أن يشد المريد وأهل الطريقة والتصوف إلى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يقـع منهم إفراط ولا تفريط ، ولا يغالون فيما يفعلون حتى لا يتعلقـوا بالبدع ، ولا يسلموا في السنن . فيوصيهم قـائلا : « ... وعليـكم بالمحافظة على سنة النبي صلى الله عليه وسلم في كل قول وفعل ، واتبـاع شمائله وسيرته . فـإنهـا سفينة النجـاة » (3) .

وقد يـكون من المفيد حقا في خاتمة هذا الفصل أن نثبت بعض الفقرات التي جاءت في وصيته لأولاده بعد وفاته . ففيها ما يميل بنا إلى الظن بأن الرجل كان لا يتخذ من زاويته التي أقامها بنفسه في أخريات حياته مركزا لتعليم العلوم وتلقينها وللاشتغـال بالمعرفـة فحسب ، وإنما هي — زيادة على ذلك — مقام صوفي قد جمع بين طرفي الشريعة والحقيقة لا يبتعد كثيرا عن زوايـا الطرقية المنتشرة داخل البلاد المغربية في عصره . حيث إننـا نجده

---

(1) النصيحة المباركة : 9 - ب وما بعـدها .
(2) نفس المصدر السـابق : 9 — ب وما بعـدها .
(3) نفس المصدر السـابق .

في هذه الفقرات يتعرض إلى أربعة أمور هامة توضح شخصية الرجل الصوفية ، وموقفه من المشيخة والفتوحات الواردة ، والمعنى الذي يعطيه لمفهوم الزاوية ، وموقفه من إطعام الطعام بها . وهو الرأي الذي عرضه اليوسي علينا في كتابه المحاضرات في حديث عام قد جمع فيه الجوانب الشرعية والصوفية في حق هذا الإطعام وما يراه الناس في حقه بالنسبة للزوايا .

أما الأمر الأول فهو الذي يعطينا فكرة على اليوسي كشيخ من شيوخ الزوايا ، يوكل أمر زاويته من بعده إلى أكبر أبنائه سنا إلا إذا تبينت خصوصية من الله تعالى وفضيلة في الأصغر منهم ، وأن يكون سلوكهم آنئذ محصورا في الاجتهاد في طاعة الله وشكره تعالى على ما أنعم عليهم من إقامة الزاوية على أيديهم ، وأن يطعموا الطعام ، وأن لا يأكلوا مما يجمع من الأرزاق بذلك المكان إلا بقدر الحاجة (1) .

وأما الأمر الثاني ، وهو المتعلق بالفتوحات والصدقات التي ترد على الزاوية ، فقد أشعر أولاده بأن هذه الأموال ليست لهم ، وإنما هي مرصدة في سبيل الله « ومتى استقامت الزاوية فليصرف فيها جميع ما كان من الصدقات في أيدينا من اليوم وما لم يزل في أيدي الناس . فكل ذلك في سبيل الله لا يحل لأحد أن يأخذه إرثا بتملكه لنفسه ولا يدخره لنفسه ولا لعياله . وإنما ذلك مرصد للانفاق في سبيل الله » (2) .

وأما الأمر الثالث فإنه قد جاء ذكره في معرض تحريضه لأبنائه على التخلي عن الزاوية إذا لم تستقم لهم ولا لأحد منهم قائلا في حقهم على طريق الجزم والأمر : « فليسلموا الأمر لله تعالى . وليعلموا أن الزاوية لا حقيقة لها شرعا ولا ذكر لها ، وإنما لفظة محدثة ومعناها مركب من أمرين : أحدهما التفرغ لعبادة الله ، ويكون ذلك بالهرب من التشاغل بالدنيا وأسباب المعاش والانكماش في الخلوة أو في ركن بيت أو في

(1) وصية اليوسي : ص 255 وما بعدها .
(2) نفس المصدر السابق : ص 268 .

مسجد للاشتغال بذكر الله والإقبال عليه . وبهذا – والله أعلم – سميت زاوية ، لأن الركن يسمى زاوية . الثاني إطعام الطعام ، وهو في عادة المتأخرين ، ويرجع معناه إلى إكرام الضيف ... وإذا كانت راجعة إلى هذه الأمور فالعبد مأمور بعبادة الله . فليعبد ربه حيث كان ... » (1) .

وبهذا الأمر الثاني يكون اليوسي قد تعرض إلى رابع الأمور التي تناولها هو في وصيته تلك ، والتي تهمنا في موضوع تصوف الرجل منها بالخصوص (2) .

الخاتمة :

وهكذا تبدو حياة اليوسي الصوفية حياة العابد الناسك المؤمن الصادق الذى لا يحيد عن الكتاب والسنة ، والذي يوصي نفسه وكل من يتصل به وله منه انتساب أن يسير في حياته كلها على السنن السني السلفي بعيدا عن الخوض في الشبهات مبتعدا عن الاشتغال بالمهمات والاثارات والألغاز ، منصرفا فيما يظهر عن المجالات النظرية الكلامية التي لا تخلو من التعقيد والغموض ، سائرا في طريقه على سنن أهل الطرق والزوايا المنتشرة في بلاده ، يمثل عصره في هذا الميدان بالخصوص تمثيلا كاملا معالما متفرغا ، قانعا زاهدا ، وصابرا متنسكا ، يعتمد على الله ، لا يخشى غيره ولا يرى فضلا عليه لأحد الا له سبحانه وتعالى إيمانا به كاملا منه اليه ، وانصرافا عن كل ما يشغله عنه في إقباله عليه .

---

(1) نفس المصدر السابق : ص 268 وما بعدها .
(2) الرجوع إلى كامل وصية اليوسي مهم جدا : ص 265 – 279 .

ثبت المصادر

القـــرآن الـكريـــم

ابن الحاج الفاسى ، أبو عبد الله محمد العبـــدرى : المدخل ، الطبعة الأولى ، 1929/0000 ، 4 أجزاء .

بن منظور ، أبو الفضل جمـال الدين محمد بن مـكرم : لسان العرب ، دار الفـكر ، بيروت 1954/1374 .

الأفرانـي المراكشـــي ، محمد الصغير ابن محمد بن عبد الله : صفوة من انتشر ، طبعة حجرية فاسية ، جزء واحد .

حجـي ، محمد : الزاوية الدلائية ، 1964/1384 ، بالرباط جـزء واحـد .

الحضيكي ، أبو عبد الله محمد ابن أحمد : طبقات ومناقب الحضيكي ، مخطوط الخزانـة العامـة بالرباط ، (د. 1123)، طبع في جزئين بالدار البيضاء .

الدوعي محمد بن موسى بن محمد : الدرر المرصعة بأخبار أعيان درعة ، مخ . الخزانة العامة بالرباط ، ك 265 .

الزيادي ، محمد بن علي الحسني : دوحة البستان ونزهة الإخوان في مناقب الشيخ علي بن عبد الرحمان ، مخ . الخزانة العامة ، ق 390 ، الربـاط .

الزركلي ، خير الدين : الأعلام ، قاموس تراجم ، 10 أجزاء ، ط 2 .

الزيـاني ، أبو القـاسم : الترجمانة الـكبرى ، تحقيق عبد الـكريم الفيلالي ، 2967/1383 ، جزء واحد .

السوسي ، محمد المختـار : إيليغ قديما وحديثا ، مط . ملـكية بالرباط . 1966/1386 ، جزء واحد .

السوسي . محمد المختار : سوس العالمة ، المغرب ، 1960/1380 ، جزء واحد .

العلوي ، عبد الرحمان بن زيدان : المنزع اللطيف في مفاخر مولانا إسماعيل ابن الشريف ، مخ الخزانة العامة ح 595 .

فـارس ، محمد خير : المسألة المغربية . معهد الدراسات العربية ، 1961 ، جزء واحد .

القـادري ، محمد بن الطيب : نشر المثـاني لأهل القرن الحادى عشر والثـاني ، المطبعة الحجريـة بفاس ، 1310/ 1892 ، جزآن .

القادرى ، محمد بن الطيب : التقاط الدور ومستفاد المواعظ والعبر من أخبـار أعيان المائة الحـادية والثانية عشر ، مخ . الخزانة العامة رباط د 676 .

الـكتاني . عبد الحي : فهرس الفهارس والإثبات ومعجـم المعاجم والمشيخات ، فاس ، 1347 . جزآن .

الـكلالي الحسني ، أبو عبد الله محمد ابن عبد القـادر : الدر المنضد الفاخر في ما لأبناء مولانا علي الشريف من المحاسن والمفاخر ، مخ الخزانة العامة ، رباط 1584 . مجلد واحـد .

كنو ن ، عبد الله : النبوغ المغربي ، الطبعة الثانية ، بيروت 1961 ، ثلاثة أجـزاء .

المنيف . عبد الحميد محمد : تقديم وتحقيق ديوان أبي علي اليوسي ، رسالة دكتوراه .

الناصري السلاوي ، أحمد ابن خالد : الاستقصاء لأخبار المغرب الأقصى ، الدار البيضاء ، 1954 ، 9 أجزاء

الناصري السلاوي ، أحمد ابن خالد : طلعة المشتري في النسب الجعفري ، المطبعة الحجرية بفاس ، جزآن في مجلد واحد .

النووي ، محيي الدين : رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ، مجلد واحد .

الهشتوكي الجزولي ، أحمد ابن محمد بن داود : رحلة الجزولي ، مخ . الخزانة العامة بالرباط ، ق 147 .

الهشتوكي الجزولي ، أحمد ابن محمد بن داود : هداية الملك العلام إلى بيت الله الحرام ، مخ . الخزانة العامة بالرباط ، ق 170 .

اليوسي ، أبو علي الحسن بن مسعود : المحاضرات ، المطبعة البهية بفاس ، 1317 . مجلد واحد .

اليوسي ، أبو علي الحسن بن مسعود : الفهرست ، مخ . الخزانة العامة بالرباط ق 1838 .

اليوسي ، أبو علي الحسن بن مسعود : رسالة للرد على المولى إسماعيل ، مخ . الخزانة العامة بالرباط . ج 849 .

اليوسي . أبو علي الحسن بن مسعود : الديوان تحقيق عبد الحميد محمد المنيف . رسالة دكتوراه .

اليوسي ، أبو علي الحسن بن مسعود : الرحلة ، مخ . خزانة عباس ابن إبراهيم ، المغرب .

اليوسي ، أبو علي الحسن بن مسعود : براءة اليوسي إلى المولى إسماعيل ، مخ . خزانة القصر الملكي بالرباط . 5 676 .

اليوسي ، أبو علي الحسن بن مسعود : تقييد حول العكاكزة ، مخ . الخزانة العامة بالرباط ، ك 1224 .

اليوسي ، أبو علي الحسن بن مسعود : أجوبة اليوسي ، مخ . الخزانة العامة بالرباط ، ق 302 .

اليوسي ، أبو علي الحسن بن مسعود : مشرب العام والخاص من كلمة الإخلاص ، تصحيح عبد الرحمان ابن جعفر الكتاني ، المطبعة الحجرية بفاس ؛

اليوسي ، أبو علي الحسن بن مسعود : الدلالة الوافية في الرسالة الآسفية ، مخ . الخزانة الملكية بالرباط ، 7704 .

اليوسي ، أبو علي الحسن بن مسعود : رسالة إلى من أسماه في شعره بأبي العباس ، مخ . الخزانة الملكية بالرباط ، 7704 .

اليوسي ، أبو علي الحسن بن مسعود : رسالة إلى المراكشي ، مخ . الخزانة العامة بالرباط ، ق 302 .

اليوسي ، أبو علي الحسن بن مسعود : النصيحة المباركة ، مخ . الخزانة العامة بالرباط ، الجزء الأول ؛ ج 612 . الجزء الثاني ؛ ق 302 .

اليوسي ، أبو علي الحسن بن مسعود : وصية اليوسي ، مخ . الخزانة العامة بالرباط ، ق 950 .

اليوسي ، أبو علي الحسن بن مسعود : ندب الملوك إلى العدل ، مخ . الخزانة العامة بالرباط ، ق 364 .

المجـلات

مجلة البحث العلمي : السنة الثالثة ، العدد السابع ، 85—1386/ 1966 ، الربـاط .

مجلة البينة المغربية : السنة الأولى ، العدد : 2،4،6،7، 81— 1962/1382 .

مجلـة تطــوان : عدد خاص بمناسبة الذكرى المئوية الثالثة لجلوس المولى إسماعيل على العرش المغربي .

مجلة دعـوة الحق : السنة السابعة ، العدد الثالث ، 1383/ 1963 ، الربـاط .

مجلـة دعوة الحـق : السنة العاشرة ، العدد الرابع ، 1386/ 1967 ، الربـاط .

مجلة رسـالة المغرب : العدد 134 ، 1951/1371 .

المراجع الأجنبيـة

Jacques Berque, Al Youssi, problèmes de la culture marocaine au XVII° siècle, (Paris 1958).